مع القرآن العظيم

الجزء الثاني

الموجز الوافي لتفسير الإمام العلامة

الحافظ بن كثير

مع القرآن العظيم

الجزء الثاني

الموجز الوافي لتفسير الإمام العلامة

الحافظ بن كثير

الواجب على كل مسلم الكشف عن معـــانى كتاب الله ، وتفسيره وطلب ذلك التفسير من مظانه وتعلمه وتعليمه للأهل والولد فالعلم الصادق هو علم القرآن . وقد ذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا لإعراضهم عن كتاب الله

ولما كان تفسير الإمام ابن كثير يكاد يتميز ـ بالإجماع ـ بالعمق والشمول والإحاطة فى الأخذ بأحسن طرق التفسير وهو تفسير القرآن بالقرآن نفسه وبالأحاديث النبوية التى هى تطبيق عملى للقرآن فقد رأينـــا تقديم الموجز الوافى منه مختصرا من التكرار والمختلف عليه وتسلسل أسماء الرواة وغير ذلك من أسباب الإطالة التى لايتسع لها وقت أكثر الناس فى عصرنا هذا، وسيكون ذلك إن شاء الله فى أجزاء مسلسلة شهرية ويمكن لـــكل قارىء أن يحصـــل على الجزء الأول إذا كان قـــد فاته نظـــير إرسال عشرة قروش إلى دار الطباعة المصرية الحديثة ١ درب العنبه بشارع محمد على بالقاهرة بخطاب مسجل فيعود الكتاب بالبريد المسجل أيضاً أو يمكن طلبه من المكتبات الآتية

اسكندرية	مكتبة المصنع الصغير بأول شارع محرم بك وفكتوريا ودار الكتاب العربى
طنطا	المكتبة الاسلامية بشارع المشهد الحسينى للشيخ محمد حسن أبو العز
الزقازيق	مكتبة عبادة بميدان المحطة
المنصورة	مكتبة الخطيب بميدان المحطة
القاهرة	بأكشاك الصحف وبميدان السيدة زينب والعتبة والصنادقية والمكتبات ومكتبة وهبه بشارع ابراهيم باشا وشارع محمد على
أسيوط	المكتبة الاسلامية بميدان المحطة
قنـــا	مكتبة الشيخ محمد عبد الظاهر
سوريا	دار الكتاب العربى بحمص

وبذلك يمكن للقارىء الجديد أن يبدأ بهذا الجزء ويطلب ما فاته .

وإذ أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ، ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون . أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون .

* * *

ذلك قول إلى اليهود الذين كانوا فى زمن النبى لما كانوا يفعلونه فى القتال مع الأوس والخزرج، ذلك أن الأوس والخزرج وهم الأنصار كانوا فى الجاهلية عباد أصنام ، وكانت بينهم حروب كثيرة ، وكانت يهود ثلاث قبائل بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج، وبنو قريظة حلفاء الأوس ، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه فيقتل اليهودى أعداءه ، وقد يقتل اليهودى الآخر من الفريق الآخر ، وذلك حرام عليهم فى دينهم ونص كتابهم ، ويخرجونهم من بيوتهم وينتهبون مافيها من الأثاث والأمتعة والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استغلوا الأسارى من الفريق المغلوب عملا بحكم التوراة ، ولهذا قال تعالى (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟) ولهذا أيضاً قال سبحانه (وإذ أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) أى لايقتل بعضكم بعضا ولا يخرجه من منزله ولا يظاهر عليه وفى قوله تعالى (ولا تخرجون أنفسكم) دليل على أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة كما قال عليه الصلاة والسلام « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم

وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»

وقوله تعالى (ثم أقررتم وأنتم تشهدون) أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم) كما تقدم آنفاً إذ كانوا فريقين، طائفة منهم بنو قينقاع وهم حلفاء الخزرج والنضير ، وقريظة وهم حلفاء الأوس فكانوا إذا حدث بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج وخرجت النضير وقريظة مع الأوس ، يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه حتى تسافكوا دماءهم بينهم، وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ماعليهم وما لهم، والأوس والخزرج حين ذاك أهل شرك يعبدون الأوثان ولا يعرفون جنة ولا نارا ولا بعثا ولا قيامة ولا كتابا ولا حلالا ولا حراما فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم تصديقاً لما فى التوراة وأخذا به، يفتدى بنو قينقاع من كان من أسراهم فى أيدى الأوس ويفتدى النضير وقريظة من كان فى أيدى الخزرج منهم بعد أن قتلوا من قتلوا من بعضهم بعضا مظاهرة لأهل الشرك (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) أى تفادونهم بحكم التوراة، وتقتلونهم وفى حكم التوراة أن لا يقتل ولا يخرج من داره ولا يظاهر عليه من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دونه ابتغاء عرض الدنيا .

* * *

وهذا السياق ذم اليهود فى قيامهم بأمر التوراة التى يعتقدون صحتها ومخالفة شرعها مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة فلهذا لا يؤتمنون على ما فيها ولا على نقلها ولا يصدقون فيما كتموه من صفة رسول الله ﷺ ونعته ومبعثه ومخرجه ومهاجره وغير ذلك من شؤونه التى أخبرت بها الأنبياء قبله عليهم الصلاة والسلام .

واليهود يتكاتمون ذلك فيما بينهم ولهذا قال تعالى (فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا) بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره (ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب) جزاء على مخالفتهم كتاب الله الذى بأيديهم (وما الله بغافل عما تعملون . أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة) إذ استحبوها واختاروها (فلا يخفف عنهم العذاب) لا يفتر ساعة واحدة (ولا هم ينصرون) لا ناصر ينقذهم مما هم فيه يومئذ من العذاب الدائم السرمدى ولا يجيرهم منه

* * *

ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون .

هم أهل علو وعناد ومخالفة واستكبار على الأنبياء اتباعا لأهوائهم فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب وهو التوراة فحرفوها وبدلوها وخالفوا أوامرها وأولوها ، وأرسل سبحانه الرسل والنبيين من بعده الذين يحكمون بشريعته كما قال تعالى (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء) ولهذا قال سبحانه (وقفينا من بعده بالرسل) أى أردفنا أو أتبعنا وقال جل شأنه (ثم أرسلنا رسلنا تترى) حتى ختم أنبياء بنى إسرائيل بعيسى بن مريم فجاء بمخالفة التوراة فى بعض الأحكام ولهذا أعطاه الله من البينات وهى المعجزات من إحياء الموتى . وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله ، وإبراء الأسقام ، وإخباره بالغيوب ، وتأييده بروح القدس وهو جبريل عليه السلام . هذه البينات ليستبينوا منها صدقه فيما جاءهم به ، فاشتد تكذيب بنى إسرائيل له وحسدهم وعنادهم لمخالفة التوراة فى البعض كما قال تعالى إخباراً عن عيسى (ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم) فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ المعاملة ففريقاً يكذبون ، وفريقاً يقتلون ، وما ذاك إلا لأنهم يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم وبالإلزام بأحكام التوراة التى قد تصرفوا فى مخالفتها ، فلهذا كان ذلك يشق عليهم فكذبوهم وقتلوا بعضهم قال تعالى (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون)

الدليل على أنه روح القدس هو جبريل

والدليل على أن روح القدس هو جبريل كما نص عليه ابن مسعود فى تفسير هذه الآية وتابعه على ذلك ابن عباس وغيرهما فى قوله تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين) هو ماروى عن عائشة رضى الله عنها فى حديث حسن صحيح

أن رسول الله ﷺ وضع لحسان بن ثابت منبراً فى المسجد فكان حسان ينافح عن رسول الله ﷺ فقال رسول الله « اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك »

وفى بعض الروايات عن ذلك أنه ﷺ قال لحسان « اهجهم أو هاجهم — وجبريل معك » وفى شعر حسان قوله :

وجبريل رسول الله فينا وروح القدس ليس به خفاء

* * *

وقال محمد بن إسحق حدثنى عبد الرحمن بن أبى حسين المكى عن شهر بن حوشب الأشعرى أن نفراً من اليهود سألوا رسول الله ﷺ قالوا أخبرنا عن الروح فقال « أنشدكم بالله وبآياته عند بنى إسرائيل هل تعلمون أنه هو جبريل الذى يأتينى ؟ » قالوا نعم . .

وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال « إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب »

* * *

وفى قوله تعالى (وأيدناه بروح القدس) ذهب المفسرون مذاهب شتى فقال ابن عباس هو الاسم الأعظم الذى كان عيسى يحيى به الموتى . . وقال ابن أبى نجيح : الروح هو حفظة على الملائكة وقال الربيع بن أنس القدس هو الرب تبارك وتعالى . وعن مجاهد والحسن البصرى أنهما قالا .. القدس هو الله . وروح القدس جبريل ..

وقال ابن زيد فى قوله تعالى (وأيدناه بروح القدس) قال : أيد الله عيسى بالإنجيل روحا كما جعل القرآن روحا كلاهما روح الله كما قال تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) ثم قال ابن جرير وأولى التأويلات فى ذلك بالصواب قول من قال: الروح فى هذا الموضع جبرائيل فإن الله تعالى أخبر أنه أيد عيسى به فى قوله تعالى (إذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) .

فمن السياق يفهم أن روح القدس هو جبريل والله أعلم .

* * *

وقال الزمخشرى فى قوله تعالى (ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون) إنما لم يقل وفريقا قتلتم لأنه أراد بذلك وصفهم فى المستقبل أيضا لأنهم حاولوا قتل النبى ﷺ بالسم والسحر وقد قال عليه السلام فى مرض موته « ما زالت أكلة خيبر تعاودنى فهذا أوان انقطاع أبهرى » وهذا الحديث فى صحيح البخارى وغيره .

* * *

وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون

(وقالوا قلوبنا غلف) قلوب مطبوع عليها لاتفقه فالغلاف هو الغطاء

(بل لعنهم الله بكفرهم) طردهم وأبعدهم من كل خير

(فقليلا مايؤمنون) لايؤمن منهم إلا القليل

ومما يتفق والسياق ماروى عن حذيفة أن القلوب أربعة فذكر منها « وقلب أغلف مغضوب عليه وذاك قلب الكافر » .

وهناك تفسير آخر عن ابن عباس وقد قرأ غلف بضم اللام وهو جمع غلاف أى قلوبنا أوعية لكل علم فلا تحتاج إلى علم آخر كما كانوا يفتون بعلم التوراة .

ولهذا قال تعالى (بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون) أى ليس الأمر كما ادعوا بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها كما قال فى سورة النساء (وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) .

وقد اختلفوا فى معنى قوله (فقليلا ما يؤمنون) وقوله (فلا يؤمنون إلا قليلا) فقال: بعضهم فقليل من يؤمن منهم، وقيل فقليل إيمانهم بمعنى أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب ولكنه إيمان لا ينفعهم لأنه مغمور بما كفروا به من الذى جاءهم به محمد ﷺ ، وقال بعضهم إنهم كانوا غير مؤمنين بشىء وإنما قال فقليلا مايؤمنون وهم بالجميع كافرون كما تقول العرب قلما رأيت إمثل هذا قط . تريد ما رأيت مثل هذا قط، وقال الكسائى تقول العرب من زنى بأرض قلما تنبت أى لاتنبت شيئا حكاه ابن جرير رحمه الله والله أعلم .

* * *

ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين .

(ولما جاءهم) يعنى اليهود (كتاب من عند الله) وهو القرآن الذى أنزل على محمد ﷺ (مصدق لما معهم) يعنى من التوراة (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) أى وقد كانوا من قبل مجىء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم فيقولون إنه سيبعث نبى فى آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم ؟ فلما بعث الله رسوله من قريش كفروا به (فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) .

عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته فقال سلام بن مشكم أخو بنى النضير ما جاءنا بشىء نعرفه وماهو بالذى كنا نذكر لكم . فأنزل الله فى ذلك من قولهم (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم) .

* * *

بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين .

(بئسما اشتروا به أنفسهم) يهود شروا الحق بالباطل وكتمان ما جاء به محمد ﷺ بأن يبينوه ، وإنما حملهم على ذلك البغى والحسد والكراهية (أن ينزل الله من فضله

على من يشاء من عباده) ولا حسد أعظم من هذا فليس من سبب لذلك إلا أن الله اختص به غيرهم (فباؤا بغضب على غضب) الغضب الأول لما كان منهم من تضييع التوراة وهى معهم والغضب الثانى لكفرهم بهذا النبى (وللكافرين عذاب مهين) لما كان من هذا الكفر .

قال ابن عباس رضى الله عنه فى تفسير ذلك .، لما كان كفرهم سببه البغى والحسد ومنشأ ذلك التكبر عوقبوا بالإهانة والصغار فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) أى صاغرين حقيرين ذليلين راغمين .

وفى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الناس يعلوهم كل شىء من الصغار حتى يدخلوا سجنا فى جهنم يقال له بولس تعلوهم نار الأنيار يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار .

* * *

وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين . ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون .

(وإذا قيل لهم) أى لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب (آمنوا بما أنزل الله) على محمد ﷺ وصدقوه واتبعوه (قالوا نؤمن بما أنزل علينا) أى يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ولا نقر إلا بذلك (ويكفرون بما وراءه) يعنى بما بعده (وهو الحق مصدقا لما معهم) أى وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ (الحق مصدقا لما معهم) فالحجة قائمة عليهم بذلك كما قال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) ثم قال تعالى (فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين) أى إن كنتم صادقين فى دعواكم الإيمان بما أنزل اليكم فلم قتلتم الأنبياء الذين جاءوكم

بتصديق التوراة التى بأيديكم والحكم بها وعدم نسخها وأنتم تعلمون صدقهم . قتلتموهم بغياً وعناداً واستكباراً على رسل الله فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والتشهى كما قال تعالى (أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون)

* * *

وقال السدى فى هذه الآية: يعيرهم الله تبارك وتعالى (قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين) وقال أبو جعفر بن جرير قل يامحمد ليهود بنى إسرائيل إذا قلت لهم وقالوا نؤمن بما أنزل علينا لم تقتلون — إن كنتم مؤمنين بما أنزل الله — أنبياء الله يامعشر اليهود وقد حرم الله فى الكتاب الذى أنزل عليكم قتلهم بل أمركم باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم

(ولقد جاءكم موسى بالبينات) أى بالآيات الواضحات والدلائل القاطعات على أنه رسول الله وأنه لا إله إلا الله . . . والآيات البينات هى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد وفرق البحر وتظليلهم بالغمام والمن والسلوى والحجر وغير ذلك من الآيات التى شاهدوها (ثم اتخذتم العجل) معبوداً من دون الله فى زمان موسى وأيامه ، وقوله من بعده أى من بعد ماذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله عز وجل كما قال تعالى (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار)

(وأنتم ظالمون) أى وأنتم ظالمون فى هذا الصنيع الذى صنعتموه من عبادتكم العجل وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله كما قال تعالى (ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين) .

* * *

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

يعدد سبحانه وتعالى خطأهم ومخالفتهم للميثاق وعتوهم وإعراضهم عنه حتى رفع

الطور عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه ولهذا (قالوا سمعنا وعصينا) وقد تقدم تفسير ذلك (وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم) قال قتادة أشربوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم

وعن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال « حبك الشىء يعمى ويصم » وقد ذهب بعض المفسرين فى تفسير (وأشربوا فى قلوبهم العجل) إلى أن موسى عليه السلام أتى بمبرد فجعل العجل الذهبى تبرا ناعما ثم ذراه فى البحر، فما من إنسان منهم عبد العجل إلا جن عندما شرب من ذلك الماء

والسياق هنا يخالف هذا، إذ أنهم أشربوا حبه فى قلوبهم كما قال النابغة فى زوجته عثمة

تغلغل حب عثمة فى فؤادى فباديه مع الخافى يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ سرور
أكاد إذا ذكرت العهد منها أطير لو أن إنسانا يطير

وقوله تعالى (قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين) أى بئسما تعتمدونه فى قديم الدهر وحديثه من كفركم بآيات الله ومخالفتكم الأنبياء ثم اعتمادكم فى كفركم بمحمد ﷺ، وهذا أكبر ذنوبكم وأشد الأمور عليكم إذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين المبعوث إلى الناس أجمعين فكيف تدعون لأنفسكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة من نقضكم المواثيق وكفركم بآيات الله وعبادتكم العجل من دون الله

* * *

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ

عن ابن عباس رضى الله عنه يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ (قل إن كانت لكم

الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) أى ادعوا بالموت على أى الفريقين أكذب ، فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ (ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقى على الأرض يهودى إلا مات . . وعن ابن عباس أنه قال — لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه .

* * *

وقال ابن جرير فى تفسيره: وبلغنا أن النبى ﷺ قال « لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لايجدون أهلا ولا مالا »

ونظير هذا قوله تعالى فى سورة الجمعة (قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) فهم لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى دعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد أنهم ظالمون لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لصدقوا فى التمنى وهذا كما دعا رسول الله ﷺ وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم فى المناظرة وعتوهم وعنادهم إلى المباهلة، فقال تعالى (فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض والله لئن باهلتم هذا النبى لايبقى منكم عين تطرف ، فعند ذلك جنحوا للسلم وبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون فضربها عليهم وبعث معهم أبا عبيدة ابن الجراح أمينا ، هذا ما كان من شأن وفد نجران مع النبى ﷺ .

* * *

ومثل هذا المعنى أو قريب منه قول الله تعالى لنبيه أن يقول للمشركين (قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) أى من كان فى الضلالة منا ومنكم فزاده الله مما هو فيه ومد له واستدرجه كما سيأتى تقرير ذلك فى موضعه إن شاء الله

وفى هذا السياق أمر يلزم التنبيه إليه، ذلك أنه لايلزم من كونهم يعتقدون أنهم

صادقون فى دعواهم أنهم يتمنون الموت إذ ليس من الضرورى أن يرغب الرجل الصالح فى الموت بل يود أن يعمر ليزداد خيراً وترتفع درجته فى الجنة كما جاء فى الحديث الشريف « خيركم من طال عمره وحسن عمله » ولو أخذنا بتفسير من يقول إنهم إن كانوا يعتقدون صدق دعواهم فليتمنوا الموت لينالوا ماينتظرهم عند الله من خير فإن لهم أن يقولوا ها أنتم أيها المسلمون تعتقدون أنكم أصحاب الجنة ومع ذلك لاتتمنون فى حالة الصحة أن تموتوا . فكيف تلزموننا بما لايلزمكم ؟

لذلك فإن أحسن التفسير ماذهب اليه ابن عباس: إن كنتم تعتقدون أيها اليهود أنكم على الحق وغيركم على الباطل فتمنوا الموت لمن يكون على الباطل واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب فلما تيقنوا باطلهم وكذبهم وكتمانهم الحق من صفة محمد ﷺ وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم نكلوا عن المباهلة .

* * *

وكانت المباهلة بالموت لأن الحياة عندهم عزيزة عظيمة لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت ، ولهذا قال تعالى (ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ولتجدنهم أحرص الناس على حياة) أى على طول العمر لما يعلمون من مآلهم السيء وعاقبتهم عند الله لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم وما يحاذرون منه واقع بهم لامحالة حتى وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم .

(ومن الذين أشركوا) قيل هم الأعاجم (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر) وذلك أن المشرك لايرجو بعثاً بعد الموت فهو يحب طول الحياة واليهودى قد عرف مآله فى الآخرة من الخزى بما ضيع ماعنده من العلم وما التعمير فى الحياة بمنجيه من العذاب مهما طال أمد البقاء فى الدنيا فلو عمر كعمر إبليس لم ينفعه ذلك (والله بصير بما يعملون) خبير بما يعمل عباده من خير وشر وسيجازى كل عامل بعمله .

قل من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقاً لما

بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين .

قال الإمام أبو جعفر ابن جرير الطبرى رحمه الله أجمع هل العلم بالتأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جوابا من بنى إسرائيل إذ زعموا أن جبريل عدو لهم وأن ميكائيل ولى لهم ثم اختلفوا فى السبب الذى من أجله قالوا ذلك

فقال بعضهم إنما كان سبب قولهم هذا من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ من أمر نبوته فقد روى عن ابن عباس أنه قال .

حضرت عصابة من اليهود عند رسول الله ﷺ فقالوا يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبى .

فقال رسول الله ﷺ « سلوا عما شئتم ولكن اجعلوا لى ذمة وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدثتكم عن شىء فعرفتموه لتتابعنى على الإسلام » فقالوا ذلك لك فقال رسول الله ﷺ « سلوا ماشئتم » قالوا أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن .

١ — أخبرنا أى الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ؟

٢ — وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل ؟

٣ — وكيف يكون الذكر منه والأنثى ؟

٤ — وأخبرنا بهذا النبى الأمى فى التوراة ومن وليه من الملائكة ؟

فقال النبى ﷺ « عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتبايعنى ؟ » فأعطوه ماشاء الله من عهد وميثاق فقال « نشدتكم بالذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه فنذر لله نذراً لئن عافاه الله من مرضه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه وكان أحب الطعام إليه لحوم الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها » فقالوا اللهم نعم .

فقال رسول الله ﷺ « اللهم اشهد عليهم ، وأنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن ماء الرجل غليظ أبيض وأن ماء المرأة رقيق أصفر فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله عز وجل ، وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكراً بإذن الله وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله عز وجل »

قالوا اللهم نعم قال « اللهم اشهد ، وأنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هـذا النبى الأمى تنام عيناه ولا ينام قلبه » قالوا اللهم نعم قال « اللهم اشهد » قالوا أنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك قال « فإن ولي جبريل ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه » .

قالوا فعندها نفارقك ولو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك قال « فما يمنعكم أن تصدقوه » ؟ قالوا إنه عدونا فأنزل الله عز وجل (قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه — إلى قوله — لو كانوا يعلمون) فعندها باءوا بغضب على غضب .

* * *

وقد روى الحديث السالف الإمام أحمد وغيره وزاد بعضهم فيه .

قالوا فأخبرنا عن الروح قال « فأنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل هل تعلمون أنه جبريل وهو الذى يأتينى » قالوا اللهم نعم ، ولكنه عدو لنـــا وهو ملك إنما يأتى بالشدة وسفك الدماء فلولا ذلك اتبعناك .

فهم إذن كانوا أعداء لجبريل لأنهم يزعمون أنه ينزل بالحرب والقتـال والعـذاب وإنهم قالوا للنبى ﷺ لو قلت ميكائيـل الذى ينزل بالرحمة والقطر والنبـات لكنا معك .

* * *

وفى حديث انفرد به البخارى

أن عبد الله بن سـلام سمع بمقدم رسـول الله ﷺ وهو فى أرض يخترف فأتى النبى ﷺ فقال إنى سائلك عن ثلاث لايعلمهن إلا نبى :—

ما أول أشراط الساعة وما أول طعام أهل الجنة وماينزع الولد إلى أبيه أو أمه؟ قال « أخبرنى بهذه جبرائيل آنفا » قال جبريل ؟ قال « نعم » قال ذاك عدو اليهود من الملائكة فقرأ هـذه الآية (من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبـك) « وأما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب . وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد وإذا سبق ماء المرأة نزعت » قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

وعن عكرمة قال إن جبريل اسمه عبد الله وميكائيل اسمه عبد الله وكلمة إيل يعنى الله ومن الناس من يقول كلمة إيل عبارة عن عبد والكلمة الأخرى هى اسم الله لأن كلمة إيل لاتتغير فى الجميع وإنما هى تعطى معانى عبد الله عبد الرحمن عبد القدوس عبد السلام عبد الكافى عبد الجليل فعبد موجودة فى هذا كله واختلفت الأسماء المضاف إليها وكذلك معانى كلمات جبرائيل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل ونحو ذلك .

* * *

وفى تأكيد عداوة اليهود لجبريل روايات كثيرة منها أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انطلق إلى اليهود فقال أنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى هل تجدون محمداً فى كتبكم ؟ قالوا نعم . قال فما يمنعكم أن تتبعوه ؟ قالوا إن الله لم يبعث رسولا إلا جعل له من الملائكة كفلا وإن جبرائيل كفل محمد وهو الذى يأتيه وهو عدونا من الملائكة وميكائيل سلمنا لو كان ميكائيل الذى يأتيه أسلمنا . قال فإنى أنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى ما منزلتهما عند الله تعالى قالوا جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله قال عمر وإنى أشهد ما ينزلان إلا بإذن الله وما كان ميكائيل ليسالم عدو جبرائيل وما كان جبرائيل ليسالم عدو ميكائيل فبينما هو عندهم إذ مر النبى ﷺ فقالوا هذا صاحبك يا ابن الخطاب فقام اليه عمر فأتاه وقد أنزل الله عز وجل (من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين)

* * *

وأما تفسير الآية فقوله تعالى (قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله) أى أن من عادى جبرائيل فليعلم أنه الروح الأمين الذى نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له فى ذلك فهو رسول من رسل الله. ملكى ، ومن عادى رسولا فقد عادى جميع الرسل كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل وكما أن من كفر برسول فإنه يعتبر كافراً بجميع الرسل كما قال تعالى (إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض) فذلك حكم من الله على هؤلاء بالكفر المحقق ، وكذلك من عادى جبرائيل فإنه عدو الله لأن جبرائيل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه وإنما ينزل بأمر ربه كما قال

(وما نتنزل إلا بأمر ربك) وقوله تعالى (وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين)

وعن النبي ﷺ عن الله تعالى أنه قال « من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب » ولهذا غضب الله لجبرائيل على من عاداه ، فقال تعالى (من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على الله مصدقا لما بين يديه) أى من الكتب المتقدمه (وهدى وبشرى للمؤمنين) هدى قلبك بإذن لقلوبهم وبشرى لهم بالجنة وليس ذلك إلا المؤمنين كما قال تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) وقوله سبحانه (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين)

* * *

لقد أعلمهم الله تعالى أن (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين) فمن عادى واحداً من الملائكة فقد عادى الآخر وعادى الله أيضا

وقد كان النبي ﷺ فى دعائه ربه يذكر فى الدعاء الملائكة فكان إذا قام من الليل يقول « اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم »

وقد تقدم قول ابن عباس : إنما كان قوله جبرائيل كقوله عبد الله وعبد الرحمن وقيل إن كلمة جبرائيل تتكون من كلمتين الأولى جبر ... والثانية إيل وأن معنى الكلمة الأولى (جبر) أى عبد والأخرى (إيل) أى الله .

وقد روى عن على بن الحسين أنه قال أتدرون ما اسم جبرائيل من أسمائكم ؟ قلنا لا . . . قال : اسمه عبد الله وكل اسم ينتهى بكلمة (إيل) فهو الله عز وجل . . والله تعالى أعلم .

* * *

ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون. أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون . ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب

الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون . واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا باذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون . ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون .

قال الإمام أبو جعفر بن جرير فى قوله تعالى (ولقد أنزلنا إليك آيات بينات) أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالات على نبوتك وتلك الآيات هى ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود ومكنونات سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بنى إسرائيل والنبأ عما تضمنته كتبهم التى لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم وما حرفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم التى كانت فى التوراة فاطلع الله فى كتابه الذى أنزله على نبيه محمد ﷺ فكان فى ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف من نفسه ولم يدعها إلى هلاكها الحسد والبغى إذ كان فى فطرة كل ذى فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البينات التى وصف من غير تعلم تعلمه من بشر ولا أخذ شيئا منه عن آدمى . .

فالأمر كما قال ابن عباس أنه ﷺ كان يغدو بينهم ويروح وهو أمى لا يقرأ كتابا ثم هو يخبرهم بما فى أيديهم على التمام

فالله تعالى يذكرهم بهذا للعبرة والبيان

ولقد روى أن أحدهم قال للنبى ﷺ يامحمـــد ماجئتنا بشىء نعرفه وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك فأنزل الله فى ذلك قوله (ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون)

وقال مالك بن الصيف حين بعث رسول الله ﷺ وذكرهم وأخذ عليهم الميثاق قال بعضهم والله ماعهد إلينا فى محمد وما أخذ علينا ميثاقا فأنزل الله تعالى (أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم) وقال الحسن البصرى فى قوله (بل أكثرهم لايؤمنون) ليس فى الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه ونبذوه يعاهدون اليوم وينقضون غداً

* * *

لقد أذلهم الله بنبذهم العهود التى تقدم الله إليهم فى التمسك بها والقيـــام بحقها وقد كذبوا بمحمد وهو الذى يجدون نعته وصفاته فى كتابهم كما قال تعالى (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل) وقال ههنا (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم) طرح طائفة منهم كتاب الله الذى بأيديهم والذى فيه البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه ولهذا أرادوا كيداً برسول الله وسحروه وكان الذى تولى ذلك عنهم رجل يقال له لبيد بن الأعصم لعنه الله وقبحه .

فهم إذن نبذوا ماكانوا يجدونه مكتوبا عنـــدهم وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت (واتبعوا ماتتلو الشياطين) وقصة ذلك حين ذهب ملك سليمان ارتد نفر من الجن والإنس واتبعوا الشهوات فلمـــا أرجع الله إلى سليمان ملكه وقام الناس على الدين كما كان وظهر سليمان على كتبهم فدفنها تحت كرسيه حتى إذا مات سليمان أخذوا الكتب من مواضعها وقالوا هذا كتاب من الله نزل على سليمان فأخفاه عنا فأخذوا به وجعلوه دينا فأنزل الله تعالى (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم) اتبعوا الشهوات التى كانت تتلو الشياطين وهى المعازف واللعب وكل شىء يصد عن ذكر الله

عن حصين بن عبد الرحمن عن عمران وهو الحارث قال :

بينما نحن عند ابن عباس رضى الله عنهما إذ جاء رجل فقـال له من أين جئت ؟ . قال من العراق . قال من أيه ؟ قال من الكوفة قال فما الخبر ؟ قال تركتهم يتحدثون أن عليا خارج إليهم، ففزع ابن عباس ثم قال ماتقول لا أبالك ؟ لو شعرنا مانكحنا نساءه ولا قسمنا ميراثه ، أما إنى سأحدثكم عن ذلك ، إنه كانت الشياطين يسترقون

السمع من السماء فيجيء أحدهم بكلمة حق قد سمعها فإذا جرت منه وصدق كذب معها سبعين كذبة فتشربها قلوب الناس ، فأطلع الله عليها سليمان عليه السلام فدفنها تحت كرسيه ، فلما توفى سليمان عليه السلام قام شيطان الطريق فقال هل أدلكم على كنزه المنع الذي لا كنز له مثله ؟ . تحت الكرسي . . فأخرجوه فقال هذا سحر فتناسخها الأمم حتى بقـــاياها مايتحدث به أهل العراق فأنزل الله عز وجل (واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا)

* * *

وفى زيادة تفسير أمر السحر والشياطين نذكر ماروى عن السدى قال : على عهد سليمان كانت الشياطين تصعد إلى السماء فتقعد منها مقاعد للسمع فيستمعون من كلام الملائكة مايكون فى الأرض من موت أو غيب أو أمر فيأتون الكهنة فيخبرونهم فتحدث الكهنة الناس فيجدونه كما قالوا فلما أمنتهم الكهنة كذبوا لهم وأدخلوا فيه غيره فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة فاكتتب الناس ذلك فى الكتب وفشا فى بنى إسرائيل أن الجن تعلم الغيب ، فبعث سليمان فى الناس فجمع تلك الكتب فجعلها فى صندوق ثم دفنها تحت كرسيه ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسى وإلا احترق، وقال سليمان لا أسمع أحداً يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا ضربت عنقه فلما مات سليمان وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان وخلف من بعد ذلك خلف تمثل الشيطان فى صورة إنسان ثم أتى نفراً من بنى إسرائيل فقال لهم هل أدلكم على كنز لاتأكلونه أبدا ؟ قالوا نعم ، قال فاحفروا تحت الكرسى فذهب معهم وأراهم المكان فحفروا فوجدوا تلك الكتب فلما أخرجوها قال الشيطان إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر ثم طار وذهب وفشا فى الناس أن سليمان كان ساحراً واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب فلما جاء محمد ﷺ خاصموه بها فذلك قوله تعالى (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا)

* * *

ولعله يجمل هنا أن نذكر شيئا عما قيل عن حقيقة السحر والسحرة قال الحسن البصرى رحمه الله : وكان السحر قبـــل زمان سليمان بن داود صحيح لاشك فيه لأن السحرة كانوا فى زمان موسى عليه السلام وسليمان بن داود بعده كما قال تعالى (ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى) الآية ثم ذكر بعدها فيها (وقتل داود جالوت

وآتاه الله الملك والحكمة) وقال قوم صالح وهم قبل إبراهيم الخليل عليه السلام لنبيهم صالح (إنما أنت من المسحرين) أى المسحورين .

* * *

وقوله تعالى (وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) اختلف الناس فى هذا المقام والأصح أن اليهود كانوا يزعمون أن الملكين اللذين يعلمان الناس السحر هما جبريل وميكائيل فكذبهم الله .

وذهب المفسرون مذاهب شتى فى تفسير هذه الآية :

وهناك أقوال رويت فى هذا السياق منها أن هاروت وماروت ملكان أنزلهما الله إلى الأرض وأذن لهما فى تعليم السحر اختباراً لعباده وامتحانا بعد أن بين لعباده أن ذلك مما ينهى عنه على ألسنة الرسل وأن هاروت وماروت مطيعان فى تعليم الناس ذلك لأنهما امتثلا ما أمرا به وهذا قول غريب .

وذهب كثير من السلف إلى أنهما أى هاروت وماروت كانا ملكين من السماء وأنهما أنزلا إلى الأرض فكان من أمرهما ما كان وعلى هذا يكون الجمع بين هذا وبين ما ورد من الدلائل على عصمة الملائكة أن هذين سبق فى علم الله لهما هذا فيكون تخصيصا لهما فلا تعارض كما سبق فى علمه من أمر إبليس، وفى قول أنه كان من الملائكة لقوله تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك مع أن شأن هاروت وماروت على ماذكر أخف مما وقع من إبليس لعنه الله .

وفى ذكر الحديث الوارد فى هذا الرأى - إن صح سنده ورفعه - وبيان الكلام عليه نقول روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه سمع نبى الله ﷺ يقول « إن آدم عليه السلام لما أهبطه الله إلى الأرض قالت الملائكة أى رب (أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك و نقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون) قالوا ربنا نحن أطوع لك من بنى آدم قال الله تعالى للملائكة هلموا ملكين من الملائكة حتى نهبطهما إلى الأرض فننظر كيف يعملون قالوا هاروت وماروت فأهبطا إلى الأرض ومثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر فجاءتهما فسألاها نفسها فقالت لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الأشراك فقالا والله لا نشرك بالله شيئا أبداً فذهبت ثم رجعت بصبى تحمله فسألاها نفسها فقالت لا والله حتى تقتلا هذا الصبى فقالا لا والله لها نقتله أبداً . فذهبت ثم رجعت

بقدح خمر تحمله فسألاها نفسها قالت لا والله حتى تشربا هذا الخمر .. فشربا فسكرا فوقعا عليها وقتلا الصبي فلما أفاقا قالت المرأة والله ما تركتما شيئا أبيتماه علي إلا قد فعلتماه حين سكرتما فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا »

وقد علق الإمام ابن كثير على هذا الحديث بأنه غريب وكذلك أكثر ما يروى من هذا القبيل والله أعلم .

* * *

وهناك رأيان في تأثر الناس بالسحر أحدهما يقول بأن للساحر تمكنا في قلب بعض الناس والرأى الآخر بأن له قدرة على التخييل فمن القبيل الأول ما روى عن عائشة رضى الله عنها من أن امرأة من أهل دومة الجندل جاءت تبتغي رسول الله ﷺ بعد موته تريد أن تسأله عن سحر أصابها قالت عائشة رضى الله عنها فرأيتها تبكى حين لم تجد رسول الله ﷺ فيشفيها فكانت تبكى حتى إني لأرحمها وتقول : إني أخاف أن أكون قد هلكت

كان لي زوج فغاب عني فدخلت على عجوز فشكوت إليها فقالت إذا فعلت ما آمرك به فأجعله يأتيك ، فلما كان الليل جاءتني بكلبين أسودين فركبت أحدهما وركبت الآخر فلم يكن شيء حتى وقفا ببابل وإذا برجلين معلقين بأرجلهما فقالا .. ماجاء بك ؟ قلت نتعلم السحر فقالا إنما نحن فتنة فلا تكفري فارجعي فأبيت وقلت لا . قالا فاذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه وينتهي الحديث بأن المرأة بعد تردد كبير فعلت ثم ندمت .

وقد استدل بهذا الأثر إلى أن الساحر له تمكن في قلب الأعيان لأن هذه المرأة استغلت استغلالا ..

وأما الذين يقولون عن الساحر أن له قدرة فقط على التخييل فهذا هو الراجح لقول الله تعالى (سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) وقوله سبحانه (يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى)

* * *

وقوله تعالى (وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر) فعن ابن عباس قال : فإذا أتاهما (أى هاروت وماروت) الآتى يريد السحر نهياه أشد النهى وقالا له إنما نحن فتنة فلا تكفر وذلك أنهما علما الخير والشر والكفر والإيمان . . فعرفا أن السحر من الكفر فإذا أبى عليهما أمراه أن يأتى مكان كذا وكذا فإذا أتاه عاين الشيطان فعله فإذا تعلمه خرج منه النور فنظر اليه ساطعا في السماء فيقول . ياحسرتاه ياويله ماذا صنع

وقد استدل بعضهم بهـــذه الآية على تكفير من تعلم السحر واستشهد بالحديث الشريف الذى يقول « من أتى كاهنا أو ساحراً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد» وهو حديث صحيح .

وقوله تعالى) فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) أى فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرفون به فيما يتصرفون من الأفاعيل المذمومة ما إنهم ليفرقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف . وهذا من صنيع الشياطين كما روى جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ قال « إن الشيطان ليضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فى الناس فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة ، يجىء أحدهم فيقول ، مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا فيقول إبليس : لا والله ما صنعت شيئا ! ويجىء أحدهم فيقول ، ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله قال : فيقربه ويدنيه ويلتزمه ويقول : نعم أنت)

وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر ما يخيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو نحو ذلك .

* * *

وقوله تعالى (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) قال الحسن البصرى من شاء الله سلطهم عليه ومن لم يشأ الله لم يسلط ولا يستطيعون من أحد إلا بإذن الله تعالى

* * *

وقوله تعالى (ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم) يضرهم فى دينهم وليس له نفع يوازى ضرره (ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق) فلقد علم اليهود الذين استبدلوا السحر عن متابعة الرسول ﷺ أن من فعل فعلهم هذا ليس له فى الآخرة من دين .

(ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون) .

أى ولبئس البديل الذى استبدلوا به السحر عوضاً عن الإيمان ومتابعة الرسول لو كان لهم علم بما وعظوا به . ولو أنهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم لكان مثوبة الله على ذلك خيراً لهم مما اختاروا لأنفسهم ورضوا به كما قال سبحانه (وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون) .

* * *

وفى شأن الذين يأتون السحر استدل بعضهم على تكفير الساحر من قوله تعالى (ولو أنهم آمنوا واتقوا) وقال آخرون لا يكفر وإنما حده ضرب عنقه لما رواه الشافعى فى رواية عن بجالة بن عبـــدة يقول : كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن اقتلوا كل ساحر وساحرة قال فقتلنا ثلاث سواحر .

وقد أخرجه البخارى فى صحيحه .

* * *

وقد صح أن حفصة أم المؤمنين سحرتها جارية لها فأمرت بها فقتلت ، قال الإمام احمد بن حنبل صح عن ثلاثة من أصحاب النبى ﷺ فى قتل الساحر ، وفى حديث عن جندب الأزدى أن رسول الله ﷺ قال « حد الساحر ضربة بالسيف » .

انكار وجود السحر

حكى أبو عبد الله الرازى فى تفسيره عن المعتزلة أنهم أنكروا وجود السحر ، قال : وربما كفروا من اعتقد وجوده . قال وأما أهل السنة فقد جوزوا أن يقدر الساحر أن يطير فى الهواء وغير ذلك .

* * *

وقيل فى علم السحر إنه على أنواع كثيرة منها :

(الأول) سحر الكذابين الذين كانوا يعبدون الكواكب السبعة السيارة ويعتقدون أنها مدبرة العالم وأنها تأتى بالخير والشر وهم الذين بعث الله إليهم ابراهيم الخليل ﷺ مبطلا لمقالتهم .

(الثانى) سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية ، فإن للوهم تأثيره على الإنسان وقد أجمعت الأطباء على نهى المرعوف عن النظر إلى الأشياء الحمر والمصروع إلى الأشياء القوية اللمعـــان أو الدوران وما ذلك إلا لأن النفوس خلقت مطيعة للوهم فهناك قوم يؤثرون فى الآخرين بإيهامهم وهو ما يسمى فى العصر الحديث بالإيحاء أو التنويم .

وقد يمكن استعمال ذلك فى الخير بما لا يدخل فى باب السحر كأن يؤثر إنسان فى آخر بتوجيهه إلى الخير وصرفه عن الضر ، والنفس إذا كانت شديدة الانجذاب إلى عالم

السموات صارت كأنها روح من الأرواح السماوية فكانت قوية على التأثير فى مواد هذا العالم .

(الثالث) والنوع الثالث من السحر الاستعانة بالأرواح الأرضية وهم الجن وهم على قسمين : مؤمنون ، وكفار . والقسم الأخير هم الشياطين . واتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية لما بينهما من المناسبة والقرب .

(الرابع) والنوع الرابع من السحر التخيلات والأخذ بالعيون والشعبذة بإتيان حركات وأقوال معينة وقال بعض المفسرين إن سحر السحرة بين يدى فرعون إنما كان من هذا النوع .

(الخامس) والنوع الخامس الأعمال العجيبة التى تظهر من أعمال كيماوية أو نسب هندسية تجعل الحقائق تظهر متغيرة عن أصولها وهذا فى الحقيقة لا ينبغى أن يعد من السحر ولكن بعضها يدخل فى نطاق حديث رسول الله ﷺ « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده فى النار » .

(السابع) التعليق للقلب كأن يدعى الساحر أنه عرف الاسم الأعظم وأن الجن يطيعونه وينقادون له فى أكثر الأمور فإذا اتفق أن يكون السامع ضعيف العقل اعتقد أنه حق فيحدث فى نفسه من ذلك خوف ومتى حدث الخوف ضعفت القوى الحساسة فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل ما يشاء .

* * *

فالسحر كما ترى أكثره تمويه وتخييل أو خفة يد أو كلام يحفظ أو من صنع الشياطين وهو على درجات وأنواع .

واختلفوا فيمن يتعلم السحر فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد يكفر بذلك ومن أصحاب أبى حنيفة من قال إن تعلمه ليتقيه أو ليجتنبه فلا يكفر . ومن تعلمه معتقداً جوازه أو أنه ينفعه كفر ، وكذا من اعتقد أن الشياطين تفعل له مايشاء فهو كافر .

* * *

يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم * ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب

وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين فى مقالهم وفعالهم ، وذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام مافيه تورية لما يقصدونه من التنقيص فإذا أرادوا أن يقولوا اسمع لنا يقولوا راعنا وهم يضمرون التورية بالرعونة وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا قالوا السام عليكم ، والسام هو الموت ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بوعليكم ، وإنما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا .

فأعمالهم وأقوالهم هذه نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بها فقال (ياأيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا وقولوا انظرنا) وفى الحديث الشريف من النهى بالتشبه بهم قوله ﷺ « بعثت بين يدى الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمرى . ومن تشبه بقوم فهو منهم »

* * *

وقد اختلف المفسرون فى كلمة راعنا والأصل فيها والغرض من النهى عنها والخلاصة أنها كلمة كره الله تعالى أن يقولوها لنبيه ﷺ وهناك كلمات نهى النبى عن التورية بها فقد روى أنه قال (لاتقولوا للعنب الكرم ولا تقولوا عبدى ولكن قولوا فتاى » وما أشبه ذلك .

وقوله تعالى (مايود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم) فى ذلك بيان لشدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين الذين حذر الله تعالى من التشبه بهم نهياً عن الاطمئنان إلى نواياهم . ونبه تعالى إلى ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل الذى شرعه لنبيهم محمد ﷺ فى قوله سبحانه (والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .)

* * *

مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى

كل شيء قدير . ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير

يرشد عباده تعالى بهذا إلى أنه المتصرف فى خلقه بما يشاء فله الخلق والأمر وهو المتصرف فكما خلقهم كما يشاء ويسعد من يشاء ويشقى من يشاء ويصح من يشاء ويمرض من يشاء ويوفق من يشاء ويخذل من يشاء، كذلك يحكم فى عباده بما يشاء فيحل مايشاء ويحرم مايشاء ويبيح مايشاء ويحظر مايشاء وهو الذى يحكم بما يريد لامعقب لحكمه ولا يسئل عما يفعله وهم يسئلون . ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التى يعلمها تعالى ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى ، فالطاعة كل الطاعة فى امتثال أمره واتباع رسله فى تصديق ما أخبروا وامتثال ما أمروا ، وترك ماعنه زجروا .

قال ابن جرير فى تفسير (ماننسخ من آية أو ننسها) ماننقل من حكم الآية إلى غيره فنبدله ونغيره وذلك أن نحول الحلال حراما والحرام حلالا والمباح محظوراً والمحظور مباحا ولا يكون ذلك إلا فى الأمر والنهى والحظر والإطلاق والمنع والإباحة ، فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ ، وأصل النسخ من نسخ الكتاب وهو نقله من نسخة إلى أخرى إلى غيرها فكذلك نسخ معنى الحكم إلى غيره إنما هو تحويله . . وأما تفاصيل أحكام النسخ وذكر أنواعه وشروطه فمبسوطة فى أصول الفقه .

* * *

(نأت بخير منها أو مثلها) نأت بخير من الذى نسخناه أو مثل الذى تركناه يقول قتادة آية فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها أمر، فيها نهى، وقوله (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير . ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله . . فتأويل الآية ألم تعلم يامحمد أن لى ملك السموات والأرض وسلطانهما دون غيرى ، وقال وهذا الخبر وإن كان خطابا من الله تعالى لنبيه ﷺ على وجه الخبر عن عظمته فإنه منه جل ثناؤه تكذيب للهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة وجحدوا نبوة عيسى ومحمد عليهما السلام لمجيئهما

بما جاءا به من عند الله بتغيير ماغـــير الله من حكم التوراة فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانهماوأن الخلق أهل مملكته وطاعته وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه ،

* * *

يقول الإمام ابن كثير . إن الذى يحمل اليهود على البحث فى مسألة النسخ إنما هو الكفر والعناد فإنه ليس فى العقل مايدل على امتناع النسخ فى أحكام الله تعالى لأنه يحكم مايشاء كما أنه يفعل مايريد مع أنه قد وقع ذلك فى كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه ثم حرم ذلك وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات ثم نسخ حل بعضها ، وكان نكاح الأختين مبـــاحا لإسرائيل وبنيه وقد حرم ذلك فى شريعة التوراة ومابعدها وأمر ابراهيم عليه السلام بذبح ولده ثم نسخه قبل الفعل وأمر جمهور بنى إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم ثم رفع عنهم القتل كيلا يستأصلهم القتل ، وأشياء كثيرة يطول ذكرها وهم يعترفون بذلك ويصدقون عنه . ... فعلى كل تقدير فوجوب متابعة النبى ﷺ متعين لأنه جاء بكتاب هو آخر الكتب عهداً بالله تبارك وتعالى . فى هذا المقام بين تعالى جواز النسخ رداً على اليهود بقوله (ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير ؟ ٭ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض) فكما أن له الملك بلا منـــازع فكذلك له الحكم بما يشاء (ألا له الخلق والأمر) .

* * *

والمسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ فى أحكام الله تعالى لما له فى ذلك من الحكمة البالغة وكلهم قال بوقوعه

* * *

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ .

نهى الله تعالى المؤمنين فى هـــذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبى ﷺ عن

الأشياء قبل كونها كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) أى وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه فلعله أن يحرم من أجل تلك المسألة

ولهذا جاء فى الصحيح « إن أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته » ولما سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد مع امرأته رجلا فأن تكلم تكلم بأمر عظيم وإن سكت سكت على مثل ذلك فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها ثم أنزل الله حكم الملاعنة . ولهذا ثبت فى الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ : كان ينهى عن قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال ، وفى صحيح مسلم « ذرونى ماتركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه » وهذا إنما قاله بعد ما أخبرهم أن الله كتب عليهم الحج فقال رجل أكل عام يارسول الله ؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ ثلاثا . . ثم قال عليه السلام « لا ولو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم » ثم قال « ذرونى ماتركتكم » الحديث

* * *

قال أنس بن مالك ، نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء فكان يعجبنا أن يأتى الرجل العاقل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع .

وقال البراء بن عازب . إن كان ليأتى على السنة أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن الشيء فأتهيب منه وإن كنا لنتمنى الأعراب تأتى فتسأله

وقوله تعالى (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) أى بلى تريدون أو هى على بابها من الإستفهام وهو إنكارى. ويعم المؤمنين والكافرين فإنه عليه السلام رسول الله إلى الجميع كما قال تعالى (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم) وذلك حين قال بعضهم يامحمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه وفجر لنا أنهاراً، نتبعك ونصدقك .

فأنزل الله من قولهم (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ؟ ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل)

وعن أبى العالية فى هذه الآية قال : قال رجل يارسول الله لو كانت كفارتنا

ككفارة بنى إسرائيل فقال النبى ﷺ « اللهم لا نبغيها — ثلاثا — ما أعطاكم الله خير مما أعطى بنى إسرائيل كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه وكفارتها فإن كفرها كانت له خزيا فى الدنيا وإن لم يكفرها كانت له خزيا فى الآخرة . فما أعطاكم الله خير مما أعطى بنى إسرائيل » قال (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما) وقال « الصلوات الخمس والجمعة إلى « الجمعة كفارة لما بينهن » وقال من هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه وإن عملها كتبت سيئة واحدة ، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة وإن عملها كتبت له عشر أمثالها ولا يهلك على الله إلا هالك »

* * *

ومن هذا القبيل أيضاً فى مناسبة نزول هذه الآية مارواه مجاهد أن قريشا سألت محمدا ﷺ . أن يجعل لها الصفا ذهباً قال « نعم وهو لكم كالمائدة لبنى إسرائيل » فأبوا ورجعوا .

والمراد أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شىء على وجه التعنت والاقتراح كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنتاً وتكذيباً وعناداً . ومن فعل ذلك فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال وذلك قوله تعالى (ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل)

وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد لهم إلى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالأسئلة التى لايحتاجون إليها على وجه التعنت والكفر كما قال تعالى (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها وبئس القرار)

* * *

ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير . وأقيموا الصلاة وآتوا

الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير .

تحذير للمؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب وإخبارهم بعدواتهم لهم فى الباطن والظاهر وما هم عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم وأمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالصفح والعفو أو الاحتمال حتى يأتى أمر الله من النصر والفتح، وأمر من الله تعالى بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ويحثهم على ذلك ويرغبهم فيه قال ابن عباس : كان حيي بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود للعرب حسداً إذ خص الله العرب برسوله ﷺ وكانا جاهدين فى رد الناس عن الإسلام ما استطاعا فأنزل الله فيهما (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم) الآية وكذلك قال تعالى (كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق) وأضاء لهم طريقه ولكن الحسد حملهم على الجحود فعيرهم ووبخهم ولامهم أشد الملامة

* * *

وقوله (فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره) والصفح هنا والعفو إلى حين أن يأتى أمر الله وقد كان هذا حتى أتى أمر الله بنسخ ذلك فى قوله (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر)

وعن أسامة بن زيد قال : كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى . وكان رسول الله يتأول من العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم بالقتل فقتل الله به من قتل من صناديد قريش

* * *

وقوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) حث على الاشتغال بما ينفعهم وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاه حتى يمكن لهم الله النصر فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد (يوم لاينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) ولهذا قال تعالى (إن الله بما تعملون بصير) فهو تعالى لايغفل عن عمل عامل ولا يضيع لديه سواء كان خيراً أو شراً فإنه سيجازى كل عامل بعمله وهذا الكلام وإن كان قد خرج مخرج الخبر فإن فيه

وعداً ووعيداً وأمراً وزجراً وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ليجدوا فى طاعته إذكان ذلك مدخوراً لهم عنده حتى يثيبهم عليه كما قال تعالى (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله)

* * *

وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين · بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون · وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون

إنه اغترار اليهود والنصارى حيث ادعت كل طائفة أنه لن يدخل الجنة إلا من كانت على ملتها كما أخبر الله عنهم فى سورة المائدة أنهم قالوا (نحن أبناء الله وأحباؤه) فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك ثم هم يدعون أنه لن تمسهم النار إلا أياما معدودة ثم ينتقلون إلى الجنة (تلك أمانيهم) تمنوها على الله بغير حق

ثم قال تعالى (قل) أى يامحمد (هاتوا برهانكم) من الحجج والبينات على هذا الادعاء (إن كنتم صادقين) فيما تدعونه

(بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن) أى أخلص العمل لله وحده لاشريك له كما قال تعالى (فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن)

شروط العمل المقبول

ذلك أن للعمل المتقبل شرطين أحدهما أن يكون خالصاً لله وحده، والآخر أن

يكون صوابا موافقا للشريعة فمتى كان خالصاً ولم يكن صوابا لم يتقبل ولهذا قال رسول الله ﷺ « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » رواه البخارى ومسلم من حديث عائشة عنه عليه الصلاة والسلام. فعمل الرهبان ومن شابههم وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعاً للرسول ﷺ المبعوث إليهم وإلى الناس كافة وفيهم وأمثالهم قال الله تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) وقال سبحانه (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا) وقال جل شأنه (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية تسقى من عين آنية) وروى عن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أنه تأولها فى الرهبان كما سيأتى

وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة فى الصورة الظاهرة ولكن لم يخلص عامله القصد لله فهو أيضا مردود على فاعله وهذا حال المرائين والمنافقين كما قال تعالى (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا) وقال تعالى (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون) ولهذا قال تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) وقال فى هذه الآية الكريمة (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن) وقوله (فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور وأمنهم مما يخافونه من المحذور فى (لا خوف عليهم) يعنى فى الآخرة (ولا هم يحزنون) يعنى لا يحزنون الموت

* * *

وقوله تعالى (وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب) فيه تبيان من الله تعالى لتناقضهم وتباغضهم وتعاديهم .

عن ابن عباس قال : لما قدم أهل نجران على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار يهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حرملة ، ما أنتم على شىء وكفر بعيسى وبالإنجيل وقال رجل من أهل نجران لليهود ، ما أنتم على شىء وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة ، فأنزل الله فى ذلك من قولهما (وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب) وهم يعلمون شريعة التوراة والإنجيل كل منهما كانت مشروعة فى وقت ولكنهم تجاهلوا فيما بينهم عناداً وكفراً (كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم) قال ابن جريج : قلت لعطاء من هؤلاء الذين

لا يعلمون ؟ قال أمم كانت قبل اليهود والنصارى وقبل التوراة والإنجيل (فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) يجمع بينهم يوم المعاد ويفصل بينهم بقضائه العدل الذى لايجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة كما قال تعالى (قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم)

ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها أولئك ماكان لهم أن يدخلوها إلا خائفين . لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم

اختلف المفسرون فى المراد من الذين منعوا مساجد الله وسعوا فى خرابها على قولين

(القول الأول) ماروى عن ابن عباس قال: كان النصارى يطرحون فى بيت المقدس الأذى ويمنعون الناس أن يصلوا فيه . وقال قتادة : هو بختنصر وأصحابه خرب بيت المقدس وأعانوه على ذلك وقال السدى إن بختنصر أمر أن تطرح فى بيت المقدس الجيف وأعانه الروم، وروى نحو ذلك عن الحسن البصرى

(القول الثانى) قال ابن زيد فى قول الله سبحانه (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها) قال هؤلاء المشركون الذين حالوا بين النبى ﷺ يوم الحديبية وبين أن يدخلوا مكة حتى نحر هدية بذى طوى وهادنهم وقال لهم « ما كان أحد يصد عن هذا البيت وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يصده » فقالوا لايدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق

ويرجح الإمام ابن كثير القول الثانى الذى ذكر آنفا .

وفى قول الله سبحانه (وسعى فى خرابها) منع ذكر الله فيها والحيلولة بين الحج والعمرة وهم المشركون الذين أخرجوا الرسول وأصحابه من مكة ومنعوهم من الصلاة فى المسجد الحرام وليس المقصود بالتخريب الهدم، وإنما استحواذهم عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم كما قال تعالى (وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لايعلمون) وقال تعالى

(ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون . إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين)

فاذا كانوا يصدون النبي ﷺ وأصحابه عن بيت الله فأى خراب أعظم من ذلك ؟ وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط، إنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها ورفعها عن الدنس والشرك .

* * *

وقوله تعالى (أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين) هذا خبر معناه أمر من الله إلى المؤمنين أن لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية . ولهذا لما فتح رسول الله ﷺ مكة أمر من العام القابل سنة تسع أن ينادى برحاب منى : « ألا لا يحجن بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان ومن كان له أجل فأجله إلى مدته » وقد كان هذا تصديقاً وعملا بقوله (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) وقيل إن هذا الطلب والتوجيه كان بشارة من الله تعالى للمسلمين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم إلا خائفاً يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل إن لم يسلم. وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدم فى منع المشركين من دخول المسجد الحرام وأوصى رسول الله ﷺ أن لا يبقى بجزيرة العرب دينان بل دين واحد هو الإسلام .. وما ذاك إلا تشريف أكناف المسجد الحرام وتطهير البقعة التى بعث الله فيها رسوله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً صلوات الله وسلامه عليه، وهذا هو الخزى لهم فى الدنيا لأن الجزاء من جنس العمل فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام صدوا هم عنه وكما أجاوا المسلمين عنها عادت عليهم الكرة فأجاوا هم منها (ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) على ما انتهكوا من حرمة البيت وامتهنوه من نصب الأصنام حوله ودعاء غير الله عنده والطواف به عريا، وغير ذلك من أفاعيلهم التى يكرهها الله ورسوله .

* * *

ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم

وهذا والله أعلم فيه تسلية للرسول ﷺ وأصحابه الذين أخرجوا من مكة وفارقوا مسجدهم ومصلاهم وقد كان رسول الله ﷺ يصلى بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه ، فلما قدم المدينة وجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ثم صرفه الله إلى الكعبة ولهذا يقول تعالى (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) قال أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب الناسخ والمنسوخ فى رواية عن ابن عباس أول مانسخ من القرآن فيما ذكر لنا والله أعلم شأن القبلة فاستقبل رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق ثم صرفه إلى بيته العتيق ونسخها فقال (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام . وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره)

* * *

وللقبلة قصة :

ذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة وكان أهلها اليهود أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً وكان عليه السلام يحب قبلة إبراهيم وكان يدعو وينظر إلى السماء فأنزل الله (قد نرى تقلب وجهك فى السماء) إلى قوله (فولوا وجوهكم شطره) فارتاب من ذلك اليهود وقالوا ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها فأنزل الله (قل لله المشرق والمغرب)

* * *

وقال ابن جرير وآخرون : بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجه إلى الكعبة وإنما أنزلها ليعلم نبيه ﷺ وأصحابه أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة حيث ناءوا من نواحى الشرق والغرب لأنهم لا يوجهون وجوههم وجها من ذلك وناحية إلا كان ـ جل ثناؤه ـ فى ذلك الوجه وتلك الناحية لأن له تعالى المشارق والمغارب وأنه لا يخلو منه مكان كما قال تعالى (ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) ثم نسخ ذلك بالفرض الذى فرض عليهم التوجه إلى المسجد الحرام

* * *

قال ابن جرير وقال آخرون بل نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ إذنا من الله أن يصلى المتطوع حيث توجه من شرق أو غرب فى مسيره فى سفره وفى حال المسايفة وشدة الخوف وعن ابن عمر أنه كان يصلى حيث توجهت به راحلته ويذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك ويتأول هذه الآية (فأينما تولوا فثم وجه الله)

وفى صحيح البخارى من حديث نافع عن ابن عمر أنه كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها : ثم قال : فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالا قياما على أقدامهم وركبانا مستقبلى القبلة وغير مستقبليها . قال نافع : ولا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبى ﷺ .

* * *

واختلف فى المناسبة التى نزلت فيها هذه الآية الكريمة ولكن الروايات كلها تكاد تكون متقاربة وقد ذكر بعضهم أنه يحتمل أن تكون فأينما تولوا وجوهكم فى دعائكم لى فهنالك وجهى أستجيب لكم دعاءكم كما روى عن مجاهد لما نزلت (ادعونى أستجب لكم) قالوا إلى أين فنزلت (فأينما تولوا فثم وجه الله) قال ابن جرير ومعنى قوله (إن الله واسع عليم) يسع خلقه كلهم بالكفاية والجود وأما قوله (عليم) فهو سبحانه عليم بأعمالهم لا يغيب عنه منها شىء ولا يعزب عن علمه بل هو بجميعها عليم .

* * *

وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون * بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون

فى هذه الآية رد على من جعل الملائكة بنات الله فأكذب الله جميعهم فى دعواهم وقولهم إن لله ولداً فقال تعالى (سبحانه) أى تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً (بل له ما فى السموات والأرض) فالأمر ليس كما افتروا وإنما له ملك السموات والأرض ومن فيهن وهو المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء والجميع عبيد له وملك له فكيف يكون له ولد منهم والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسبين وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك فى عظمته وكبريائه ولا صاحبة له فكيف يكون له ولد ؟ كما قال تعالى (بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم) وقال تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئاً إدا . تكاد السموات

يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولداً . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً إن كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عداً وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) وقال تعالى (قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد) فقرر تعالى فى هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم الذى لا نظير له ولا شبيه له وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة فكيف يكون له منها ولد ؟ ولهذا قال البخارى فى تفسير هذه الآية من سورة البقرة عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال « قال الله تعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك . فأما تكذيبه إياى فيزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان . وأما شتمه إياى فقوله إن لى ولداً فسبحانى أن أتخذ صاحبة أو ولداً »

وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم »

وفى قوله تعالى (كل له قانتون) أى مطيعون قال للإنسان كن إنساناً فكان . وقال للحمار كن حمارا فكان . (بديع السموات والأرض) خالقهما على غير مثال سبق والإبداع الإنشاء وإحداث ما لم يسبق إلى إنشاء مثله وإحداثه ولذلك سمى المبتدع فى الدين مبتدعاً لإحداثه فيه ما لم يسبق إليه غيره وكذلك كل محدث قولا أو فعلا لم يتقدمه فيه متقدم

* * *

فالمعنى أنه: سبحان الله أن يكون له ولد وهو مالك ما فى السموات والأرض تشهد له جميعها بدلالتها عليه بالوحدانية وتقر له بالطاعة وهو بارئها وخالقها وموجدها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه وهذا إعلام من الله لعباده أن ممن يشهد له بذلك المسيح الذى أضافوا اليه بنوته وإخبار منه لهم أن الذى ابتدع السموات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال هو الذى ابتدع المسيح عيسى من غير والد بقدرته وهذا تفسير جيد لابن جرير رحمه الله .

وقوله تعالى (وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) بيان على قدرته وعظيم سلطانه وأنه إذا قدر أمراً وأراد كونه فإنما يقول له كن مرة واحدة فيوجد على وفق ما أراد سبحانه كما قال جل شأنه (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) وقوله تعالى (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر)

وفى ذلك تنبيه أيضاً على أنه خلق عيسى بكلمة كن فكان كما أمره الله .

(إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون)

وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون

عن ابن عباس قال : قال رافع بن حرملة لرسول الله ﷺ يا محمد إن كنت رسولا من الله كما تقول فقل لله فيكلمنا حتى نسمع كلامه فأنزل الله فى ذلك (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية)

وهذا قول كفار العرب

(كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم) وهم اليهود والنصارى الذين قالوا لرسلهم ذلك فجاء مشركو العرب يكررون هذا مع محمد ﷺ (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) وقوله تعالى (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) إلى قوله (قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا) وقوله تعالى (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا) الآية وقوله تعالى (بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركى العرب وعتوهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجة لهم به إنما هو الكفر والمعاندة كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم كما قال تعالى (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة) وقال تعالى (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة)

* * *

وفى تفسير قوله تعالى (تشابهت قلوبهم) أى شابهت قلوب مشركى العرب قلوب من تقدمهم فى الكفر والعناد والعتو كما قال تعالى (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به ؟)

وفى قوله تعالى (قد بينا الآيات لقوم يوقنون) قد أوضحنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى لمن أيقن وصدق واتبع الرسل

وفهم ما جاءوا به عن الله تبارك وتعالى وأما من ختم الله على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة فأولئك قال الله فيهم (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم)

(إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم)

عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال « أنزلت على (إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيرا) قال بشيراً بالجنة ونذيراً من النار »

وقوله تعالى (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) لا نسألك عن كفر من كفر بك كقوله (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) وكقوله تعالى (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) وكقوله جل شأنه (نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد)

وأشباه ذلك من الآيات.. وقيل إن تسأل قرئت بفتح التاء وسكون اللام وفي هذا نهي عن السؤال عن حالهم وفي الحديث عن محمد بن كعب القرظي قال : قال رسول الله ﷺ « ليت شعري ما فعل أبواي ليت شعري مافعل أبواي ليت شعري مافعل أبواي ؟ » فنزلت الآية (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم)

عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة . فقال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن . يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا وحرزاً للأميين . أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل. ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً

(ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير * الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته

أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

قال ابن جرير فى تفسير ذلك .

وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبداً فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم وأقبل على طلب رضا الله فى دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق

(قل إن هدى الله هو الهدى) قل يا محمد إن هدى الله الذى بعثنى به هو الهدى أى الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل .

قال قتادة ، وبلغنا أن رسول الله ﷺ كان يقول « لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله » .

* * *

(ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير) تهديد ووعيد عن اتباع طرائق هؤلاء بعد ما علموا من القرآن والسنة عياذا بالله من ذلك

فإن الخطاب مع الرسول والأمر لأمته

وقوله (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) قال قتادة هم أصحاب رسول الله ﷺ وعن عمر بن الخطاب فى تفسير (يتلونه حق تلاوته) إذا مروا بذكر الجنة سألوا الله الجنة ، وإذا مروا بذكر النار تعوذوا بالله من النار ، قال ابن مسعود والذى نفسى بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه ويقرأه كما أنزله الله ولا يحرف الكلم عن مواضعه ولا يتأول منه شيئا غير تأويله

وقال الحسن البصرى ، يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه .

وقد روى عن النبى ﷺ أنه كان إذا مر بآية رحمة سأل ، وإذا مر بآية عذاب تعوذ

* * *

وقوله تعالى (أولئك يؤمنون به) أى من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته ، آمن بما أرسلتك به يا محمد كما قال تعالى (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم)

وقال (قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما

أنزل إليكم من ربكم) أى إذا أقمتموها حق الإقامة وآمنتم بها حق الإيمان وصدقتم مافيها من الأخبار بمبعث محمد ﷺ ونعته وصفته والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته فادكم ذلك إلى الحق واتباع الخير فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل) وقال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون)

وفى الصحيح .. « والذى نفسى بيده لايسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لايؤمن بى إلا دخل النار »

* * *

يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين . واتقوا يوماً لاتجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولاتنفعها شفاعة ولا هم ينصرون

قد تقدم نظير هذه الآية فى صدر السورة وكررت هنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبى الأمى الذى يجدون صفته فى كتبهم ونعته واسمه وأمره وأمته فحذرهم كتمان هـــذا ، وكتمان ما أنعم به عليهم وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم من النعم الدنيوية والدينية ولا يحسدوا بنى عمهم من العرب على مارزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم ، ولا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه والحيـــد عن موافقته . صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين

* * *

وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لاينال عهدى الظالمين

تنبيه من الله تعالى إلى شرف إبراهيم خليله عليه السلام وأن الله تعالى جعله إماما للناس يقتدى به فى التوحيد حين قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهى ولهذا قال (وإذ ابتـــلى ابراهيم ربه بكلمات) أى واذكر يامحمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملة إبراهيم وليسوا عليها بما اختبر به الله ابراهيم من الأوامر والنواهى (فأتمهن) قام بهن كلهن ولذلك قال عنه سبحانه (وإبراهيم الذى وفى) أى أتم جميع ماشرع له وقال تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفا ولم يك من المشركين . شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين)

وقوله تعالى (بكلمات) أى بشرائع وأوامر ونواه . فإن الكلمات تطلق ويراد بها الكلمات القدرية كقوله تعالى عن مريم عليها السلام (وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) وتطلق ويراد بها الشرعية كقوله تعالى (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) أى كلماته الشرعية . وهى إما خبر صدق وإما طلب عدل

فلما أتم إبراهيم ما أمر به قال تعالى (إنى جاعلك للناس إماما) قدوة يقتدى به ويحتذى حذوه

* * *

وقد اختلف فى تعيين الكلمات التى اختبر بها إبراهيم الخليل عليه السلام ، فقال ابن عباس إن الله ابتلاه بالمناسك وقيل عن ابن عباس أيضا ابتلاه بالطهارة خمس فى الرأس وخمس فى الجسد

فى الرأس قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس

وفى الجسد تقليم الأظفار وحلق العانة والختان ونتف الأبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء

وقريب من هذا ماثبت فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت . قال رسول الله ﷺ « عشر من الفطرة قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وغسل البراجم ونتف الأبط وحلق العانة وانتقاص الماء ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة » وانتقاص الماء هو الاستنجاء وزاد بعضهم فيما ابتلى

به ابراهيم فوق الطهارة المشاعر الأربعـــة وهى الطواف والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار والإفاضة

* * *

وعن ابن عباس أنه قال .. ما ابتلى بهذا الدين أحد فقام به كله إلا إبراهيم : وقال عن الكلمات التى ابتلى بها إن الاسلام ثلاثون سهماً منهـا عشر آيات فى براءة (التائبون العابدون) إلى آخر الآية .. وعشر آيات فى أول سورة (قد أفلح المؤمنون)و(سأل سائل بعـذاب واقع) وعشر آيات فى الأحزاب (إن المسلمين والمسلمات) إلى آخر الآية فأتمهن كلهن فـكتبت له براءة قال تعالى (وإبراهيم الذى وفى)

* * *

ويرى ابن عباس أيضاً أن من الكلمات التى ابتلى بها ابراهيم فراق قومه فى الله حين أمر بمفارقتهم ، ومحاجته نمروذ فى الله ، وصبره على قذفه إياه فى النار ليحرقوه، فى الله والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده فى الله والصبر على ذلك وما ابتلى به من ذبح ابنه حين أمره ربه بذبحه . فلما مضى على ذلك كله وأخلصه للبـــلاء قال الله له (أسلم قال أسلمت لرب العالمين)

* * *

وقوله (قال ومن ذريتى) وقال (لاينال عهدى الظالمين) لما جعل الله إبراهيم إماما سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته فأجيب إلى ذلك وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون وأنه لاينالهم عهد الله ولا يكونون أئمة حتى لايقتدى بهم والدليل على أنه أجيب إلى طلبته قوله تعـــالى فى سورة العنكبوت (وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب) فكل نبي أرسله الله وكل كتاب أنزله سبحانه بعد إبراهيم ففى ذريته صلوات الله وسلامه عليه وأما قوله (لاينال عهدى الظالمين) فقد اختلف فى معناها ،وما نراه أن من كان من ذريته صالحا فيكون إماما يقتدى به وأما من كان ظالماً فلا كما قال تعالى (وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين)

* * *

وقد ذهبت أقوال المفسرين مذاهب شتى واختار ابن جرير أن هـــذه الآية وإن كانت ظاهرة فى الخبر أنه لاينال عهد الله بالإمامة ظالما، ففيها إعلام من الله لإبراهيم

الخليل عليه السلام أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه كما تقدم والظالم لايصلح أن يكون خليفة ولا حاكما ولا مفتياً ولا شاهداً ولا راويا

* * *

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى

(وإذ جعلنا البيت مثابة للناس) لاينصرف عنه منصرف وهو يرى أنه قد قضى منه وطرا فالقوم يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم ثم يعودون إليه وما أحسن ماقال فى ذلك الشاعر :

جعـــل البيت مثابا لهم ليس منه الدهر يقضون الوطر

وعن أبى العالية فى تفسير (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا) يقول وأمنا من العدو، وأن يحمل فيه السلاح وقد كانوا فى الجاهلية يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون لايسبون .

وروى عن آخرين قالوا: من دخله كان آمنا

ومضمون مافسر به هؤلاء الأئمة هذه الآية أن الله تعالى يذكر شرف البيت وما جعله موصوفا به شرعا وقدرا من كونه مثابة للناس تشتاق إليه الأرواح وتحن إليه ولا تقضى منه وطرا ولو ترددت إليه كل عام استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام فى قوله (فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم) إلى أن قال (ربنا وتقبل دعائى) ويصفه تعالى بأنه جعله أمنا من دخله أمن، ولو كان قد فعل مافعل ثم دخله كان آمنا . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يعرض له كما وصف فى سورة المائدة بقوله تعالى (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس) أى يدفع عنهم بسبب تعظيمها السوء كما قال ابن عباس لو لم يحج الناس هذا البيت لأطبق الله السماء على الأرض وما هذا الشرف إلا لشرف بانيه أولا وهو خليل الرحمن كما قال تعالى (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لاتشرك بى شيئا) وقال تعالى (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا) وفى هذه الآية الكريمة نبه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده . فقال (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وقد اختلف المفسرون فى المراد بالمقام قال بعضهم مقام إبراهيم الحرم كله ، وقال آخرون إن مقام إبراهيم هو

هذا الذى فى المسجد . ، وقال ابن عباس مقام إبراهيم الحج كله .

وقال سفيان الثورى عن مقام إبراهيم إنه الحجر قد جعله الله رحمة فكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجارة وفى حديث رواه جابر قال : لما طاف النبى ﷺ قال له عمر هذا مقام أبينا ؟ قال نعم ، قال أفلا نتخذه مصلى ؟ فأنزل الله عز وجل (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى)

وبمناسبة موافقة الله تعالى لعمر رضى الله عنه روى عن أنس بن مالك أنه قال : قال عمر بن الخطاب : وافقت ربى فى ثلاث أو وافقنى ربى فى ثلاث : قلت يارسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزلت (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى)وقلت يارسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب . قال وبلغنى معاتبة النبى ﷺ بعض نسائه فدخلت عليهن فقلت انتهين أو ليبدلن الله رسوله خيراً منكن حتى أتيت إحدى نسائه قالت : ياعمر أما فى رسول الله مايعظ نساءه حتى تعظهن أنت فأنزل الله (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات) الآية

* * *

وفى رواية عن عمرو بن دينار : قال سمعت ابن عمر يقول قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعاً وصلى خلف المقام ركعتين ، فهذا يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحجر الذى كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار وكلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه وهكذا حتى أتم جدران الكعبة كما سيأتى بيانه إن شاء الله فى قصة إبراهيم وإسماعيل فى بناء البيت، وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه ولم يزل هـــذا معروفا تعرفه العرب فى جاهليتها ولهذا قال أبو طالب فى قصيدته المعروفة اللامية .

وموطىء إبراهيم فى الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل

وقد أدرك المسلمون ذلك أيضا. وفى حديث عن أنس بن مالك قال رأيت المقام فيه أصابعه عليه السلام وأخمص قدميه غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم

وفى مسح الحجر قال قتادة إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه . وقد تكلفت هذه الأمة شيئا ماتكلفته الأمم قبلها

يقول الإمام ابن كثير . .

وقد كان هذا المقام ملصقاً بجوار الكعبة قديما ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلى الحجر يمنة الداخل من الباب فى البقعة المستقلة هناك وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جوار الكعبة أو أنه انتهى عند البناء فتركه هناك ولهذا والله أعلم أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعمر هو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ « اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر » وعمر هو الذى نزل القرآن بوفاقه فى الصلاة عنده ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين

* * *

وعن عائشة رضى الله عنها أن المقـــام كان زمان رسول الله ﷺ وزمان أبى بكر رضى الله عنه ملتصقاً بالبيت ثم أخره عمر بن الخطاب

* * *

وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود . وإذ قال إبراهيم رب اجعل هـذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير . وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم

قال الحسن البصرى قوله (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل) أمرهما الله أن يطهراه من الأذى والنجس ولا يصيبه من ذلك شيء

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس قوله (أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين) من الأوثان والرفث وقول الزور والرجس . .

والطائفون هم الذين يأتون أغراباً ، والعاكفون هم المقيمون فيه عن حماد بن سلمة أخبرنا ثابت قال قلنا لعبد الله بن عبيد بن عمير ما أرانى إلا مكلم الأمير أن امنع الذين ينامون فى المسجد الحرام فانهم يجنبون ويحدثون . قال لاتفعل فإن ابن عمر سئل عنهم فقال هم العاكفون .

يقول ابن كثير

وقد ثبت فى الصحيح أن ابن عمر كان ينام فى مسجد الرسول ﷺ وهو عزب

وأما قوله تعالى (والركع السجود) فهم المصلون

أورد ابن جرير سؤالا فقال . . إن معنى الآية وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتى للطائفين والتطهير الذى أمرهما به فى البيت هو تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان ومن الشرك فهل كان قبل بناء إبراهيم عند البيت شيء من ذلك الذى أمر بتطهيره منه . ؟

وأجاب بوجهين :

(أحدهما) أنه أمرهما بتطهيره مما كان يعبد عنده زمان قوم نوح من الأصنام والأوثان ليكون ذلك سنة لمن بعدهما إذ كان الله تعالى قد جعل إبراهيم إماماً يقتدى به .

(الجواب الثانى) أنه سبحانه أمرهما أن يخلصا فى بنائه لله وحده لا شريك له فيبنياه مطهراً من الشرك والريب كما قال جل ثناؤه (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ، أم من أسس بنيانه عن شفا جرف هار) قال فكذلك قوله (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى) أى ابنياه على طهر من الشرك بى والريب كما قال السدى .

* * *

أيهما أفضل الطواف أم الصلاة ؟

وقداختلف الفقهاء: أيهما أفضل الصلاة عند البيت أم الطواف به ؟

فقال مالك : الطواف به لأهل الأمصار أفضل

وقال الجمهور : الصلاة أفضل مطلقاً

ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتب الأحكام

* * *

وتطهير المساجد مأخوذ من الآية السابقة ومن قوله تعالى (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصـــال) وفى السنة أحاديث كثيرة بتطهيرها وتطييبها وصيانتها من الأذى والنجاسات . ولهـذا قال عليه السلام « إنما بنيت المساجد لما بنيت له »

أول من بنى الكعبة

وقد اختلف الناس فى أول من بنى الكعبة فقيل الملائكة وقيل آدم عليه السلام وقوله تعالى (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر) فعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « إن إبراهيم حرم بيت الله وأمنه، وإنى حرمت المدينة ما بين لابتيها فلا يصاد صيدها ولا يقطع عضاهها» وزاد أبو هريرة فى هذا الحديث فقال « لا يحمل فيها سلاح لقتال ولا يقطع منها شجرة إلا لعلف بعير » وفى حديث « إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها وإنى حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة وإنى دعوت فى صاعها ومدها بمثلى ما دعا به إبراهيم لأهل مكة »

والأحاديث فى تحريم المدينة كثيرة

وإنما أوردنا منها بعض ما هو متعلق بتحريم إبراهيم عليه السلام لمكة لما فى ذلك من مطابقة الآية الكريمة، وتمسك بهـا من ذهب إلى أن تحريم مكة إنما كان على لسان إبراهيم الخليل وقيل إنها حرمة منذ خلقت الأرض وهذا أظهر وأقوى والله أعلم

ولقد وردت أحاديث أخر تدل على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات والأرض كما جاء فى الصحيحين عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال . قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة « إن هـذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو

حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى ولم يحل لى إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاها »

* * *

وعن أبى شريح العدوى أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة ائذن لى أيها الأمير أن أحدثك قولا قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح سمعته أذناى ووعاه قلبى وأبصرته عيناى حين تكلم به ـ إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال « إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد بها شجرة فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم . وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد الغائب » فقيل لأبى شريح ما قال لك عمرو ؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح . إن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فاراً بدم ولا فاراً بخربة .. رواه البخارى ومسلم وهذا لفظه

فإذا علم هذا فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم عليه السلام حرمها لأن إبراهيم بلغ عن الله حكمه فيها وتحريمه إياها وأنها لم تزل بلداً حراما عند الله قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها ، كما أنه قد كان رسول الله ﷺ مكتوبا عند الله خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل فى طينته ومع هذا قال إبراهيم عليه السلام (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) وقد أجاب الله دعاءه كما سبق فى علمه وقدره

ولهذا جاء فى الحديث أنهم قالوا يا رسول الله أخبرنا عن بدء أمرك فقال «دعوة أبى إبراهيم عليه السلام وبشرى عيسى بن مريم ورأت أمى كأنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام »

* * *

وأما مسألة تفضيل مكة على المدينة كما هو قول الجمهور، أو المدينة على مكة كما هو مذهب مالك وأتباعه فستذكر فى موضع آخر من الأجزاء القادمة إن شاء الله فى مناسبتها وبالله الثقة .

وأما قوله تعالى إخباراً عن الخليل أنه قال (رب اجعل هذا بلداً آمنا) فمن

الخوف لا يرعب أهله وقد فعل الله ذلك قدراً وشرعا كقوله تعـــالى (ومن دخله كان آمنا) وقد تقدمت الأحاديث فى تحريم القتـال فيه . وفى صحيح مسلم عن جابر سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا يحل لأحد أن يحمل بمكة سلاح »

وقوله تعالى (وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) قال ابن عباس كان يريد بدعائه المؤمنين فقط فأنزل الله ومن كفر أيضاً أرزقهم كما أرزق المؤمنين . أأخلق خلقا لا أرزقهم ؟ أمتعهم قليلا ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير ثم قرأ ابن عباس (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) وهذا كقوله تعالى (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) وقوله (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون . وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين)

* * *

فالمعنى أن الله تعالى ينذرهم ويمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر كقوله تعالى (وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير) وفى الصحيحين « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم » وفى الصحيح أيضا « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته »

(وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد)

* * *

وأما قوله تعالى (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) كان بعض الصالحين يبكى تأثرا ويقول ياخليل الرحمن ترفع قواعد بيت الرحمن وأنت مشفق أن لا يتقبل منك . . ؟ وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين الخلص فى قوله (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) أى يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات وقلوبهم فى خوف أن لا يتقبل منهم

وقال بعض المفسرين إن الذى كان يرفع القواعد هو إبراهيم والداعى إسماعيل والصحيح أنهما كانا يرفعان ويقولان كما سيأتى بيانه

* * *

وفى رواية عن ابن عباس: جاء إبراهيم بامرأته هاجر وابنها إسماعيل وهى ترضعه وتركهما عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء وترك عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل تسأله فى تركه إياهما بهذا الوادى قالت الله أمرك بهذا ؟ قال نعم.. قالت إذن لايضيعنا ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لايرونه استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا ورفع يديه وقال (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم) حتى بلغ (يشكرون)

أما حيث كان إسماعيل وأمه فإنهما لما نفد الماء الذى فى السقاء واستبد بإسماعيل العطش انطلقت فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا ، فلم تر أحدا

فعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس : قال النبى ﷺ « فلذلك سعى الناس بينهما » فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت « صه » تريد نفسها . . ثم تسمعت فسمعت أيضا ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غوث فإذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو بجناحه حتى ظهر الماء فلما شربت وأرضعت ولدها قال لها الملك لاتخافى الضيعة فإن ههنا بيتا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لايضيع أهله ، وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء وعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء فأرسلوا جريا أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم وأم إسماعيل عند الماء قالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك قالت نعم : فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم حتى إذا شب إسماعيل وتزوج منهم وماتت أمه جاء إبراهيم عليه السلام يزور ولده إسماعيل فلم يجده فى بيته وإنما وجد امرأته حتى إذا سألها عن عيشهم وهيأتهم فقالت نحن بشر نحن فى ضيق وشدة قال إبراهيم لزوجة إسماعيل فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل وكأنه أنس شيئا فقال هل جاءكم أحد ؟

فلما أخبرته الخبر وقصت عليـــه ماكان من شكواها من شدة الحياة والضنك وما كان من نصيحته لإسماعيل أن يغير عتبة بابه. قال إسماعيل: فذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقك فالحقى بأهلك ، وطلقها وتزوج منهم بأخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه قالت خرج يبتغى لنا رزقا . قال كيف أنتم ؟ قالت نحن بخير وسعة وأثنت على الله عز وجل . قال ما طعامكم ؟ قالت اللحم قال فما شرابكم ؟ قالت الماء . قال اللهم بارك فى اللحم والماء . قال النبى ﷺ « ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم لدعا لهم فيه » ثم قال إبراهيم لزوج إسماعيل فاذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام واخبريه يثبت عتبة بابه فلما جاء إسماعيل قال هل أتاكم من أحد ؟ قالت نعم شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه قال فهل أوصاك بشىء ؟ قالت نعم . هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك ،

قال: ذاك أبى وأنت العتبة أمرنى أن أمسكك.

حتى إذا عاد إبراهيم للمرة الثالثة قام مع إسماعيل يرفعان قواعد البيت وهما يقولان (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم)

* * *

وفى أقوال اخرى مايدل على أن قواعدالبيت كانت مبنية قبل إبراهيم وإنما هدى إبراهيم اليها وبوئت له . . وفى القول بأن آدم كان أول من بنى البيت قال عطاء. قال آدم إنى لا أسمع أصوات الملائكة ، قال: بخطيئتك ولكن اهبط إلى الأرض فابن لى بيتاً ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف ببيتى الذى فى السماء .

هدمها بنت قريش الكعبة

وقد أعادت قريش بناء الكعبة بعد إبراهيم عليه السلام بمدد طويلة وقبل مبعث رسول الله ﷺ بخمس سنين وكان ينقل معهم الأحجار وعمره خمس وثلاثون سنة قال ابن اسحق .. ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها كل قبيلة تجمع على حدة ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن يعنى الحجر الأسود فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى تحاوروا وتخالفوا وأعدوا للقتال فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة فسموا « لعقة الدم » فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد فتشاوروا وتناصفوا، فزعم

فى الأميين إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن كما جاء فى الحديث « إنى عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل فى طينته وسأنبئكم بأول ذلك ، دعوة أبى إبراهيم وبشارة عيسى بى ورؤيا أمى التى رأت وكذلك أمهات النبيين يرين »

والمراد أن أول من نوه بذكره وشهره فى الناس إبراهيم عليه السلام ولم يزل ذكره فى الناس مذكوراً مشهوراً سائراً حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بنى إسرائيل نسباً وهو عيسى بن مريم عليه السلام حيث قام فى بنى إسرائيل خطيباً وقال (إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) ولهذا قال فى هذا الحديث دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى بن مريم .

وقوله «ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام» قيل كان مناما رأته حين حملت به وقصته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم وكان ذلك توطئة، وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام ولهذا تكون الشام فى آخر الزمان معقلا للإسلام وأهله ولهذا جاء فى الصحيحين « لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك »

« ٭ »

(ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) يعنى فى أمة محمد ﷺ (ويعلمهم الكتاب) يعنى القرآن (والحكمة) يعنى السنة (ويزكيهم) قال ابن عباس يعنى بطاعة الله والإخلاص (ويعلمهم الكتاب والحكمة) يعلمهم الخير فيفعلوه والشر فيتقوه ويخبرهم برضا الله عنهم إذا أطاعوه ليستكثروا من طاعته ويجتنبوا ما يسخطه من معصيته (إنك أنت العزيز الحكيم) العزيز الذى لا يعجزه شىء وهو قادر على كل شىء الحكيم فى أفعاله وأقواله فيضع الأشياء فى محالها لعلمه وحكمته وعدله

ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون

ذلك رد على الكفار فيما ابتدعوه من الشرك بالله بمخالفة ملة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء فإنه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى فلم يدع معه غيره ولا أشرك به طرفة عين وتبرأ من كل معبود سواه وخالف فى ذلك سائر قومه حتى تبرأ من أبيه فقال (ياقوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) وقال تعالى (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون . إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين) وقال تعالى (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم) وقال تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين . شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين)

* * *

ولهذا وأمثاله قال تعالى (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه) أى ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال فأى سفه أعظم من هذا ؟ أم أى ظلم أكبر من هذا ؟

وقوله تعالى (إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين) أمره الله بالإخلاص له والإستسلام والانقياد فأجاب . وقوله (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب) وصية بهذه الملة وهى الإسلام لله . وقد قرأ بعض السلف « يعقوب » بنصب الباء عطفاً على بنيه كأن إبراهيم وصى بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحق وكان حاضراً ذلك

ومن دلائل وجود يعقوب فى حياة إبراهيم قول الله تعالى فى سورة العنكبوت (ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب) وهذا يقتضى أنه وجد فى حياته، وأيضا فإنه بانى بيت المقدس فقد ثبت فى الصحيحين من حديث أبى ذر قلت يارسول الله أى مسجد وضع أول ؟ قال « المسجد الحرام » قلت ثم أى : قال « بيت المقدس » قلت كم بينهما ؟ : قال « أربعون سنة »

ومن وصية يعقوب لبنيه — وسيأتى ذكرها قريبا — دليل على أنه من جملة الموصين

وقوله (يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) أمر بالإحسان فى حال الحياة وملازمة هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه فإن المرء يموت غالبا على ماكان

عليه ويبعث على مامات عليه وقد أجرى الله الكريم حكمته بأن من قصد الخير وفق له ويسر عليه ومن نوى صالحا ثبت عليه . ولا معارضة فى ذلك لما جاء فى الحديث الشريف الصحيح « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » لأنه قد جاء فى بعض روايات هذا الحديث ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وبعمل أهل النار فيما يبدو للناس وقد قال الله تعالى (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى)

* * *

أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلها واحداً ونحن له مسلمون . تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون .

حجة على مشركى العرب من أبناء إسماعيل وعلى الكفار من بنى إسرائيل بأن يعقوب — وهو يعقوب بن إسحق بن ابراهيم عليهم السلام — لما حضرته الوفاة وصى بنيه بعبادة الله وحده لاشريك له فقال لهم (ماتعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق) وهذا من باب التغليب لأن إسماعيل عمه ، والعرب يسمون العم أبا وقد استدل بهذه الآية الكريمة على تسمية الجد أبا

(ونحن له مسلمون) مطيعون خاضعون كما قال تعالى (وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون) والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم كما قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى

إليه أنه لاإله إلا أنا فاعبدون) والآيات فى هذا كثيرة والأحاديث منها قوله ﷺ « الأنبياء أولاد علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد»

* * *

وقوله تعالى (تلك أمة قد خلت) مضت (لها ما كسبت ولكم ما كسبتم) فإن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لاينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيرا يعود نفعه عليكم فإن لهم أعمالهم التى عملوها ولكم أعمالكم (ولا تسئلون عما كانوا يعملون)

ولهذا جاء فى الحديث الصحيح المرفوع«من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه »

* * *

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

عن ابن عباس قال : قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يامحمد تهتده وكذلك قالت النصارى فأنزل الله عز وجل (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا) والجواب (قل بل ملة إبراهيم حنيفا) لانريد مادعوتمونا إليه من اليهودية والنصرانية بل نتبع (ملة إبراهيم حنيفا) أى مستقيما

والحنيف الذى يؤمن بالرسل كلهم من أولهم الى آخرهم . وقال قتادة الحنيفية شهادة أن لاإله إلا الله، يدخل فيها تحريم الأمهات والبنات والخالات والعمات وما حرم الله عز وجل .

* * *

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ

النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون

إرشاد من الله تعالى لعباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلا وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملا ، ونص على أعيان من الرسل وأجمل ذكر بقية الأنبياء وأن لا يفرقوا بين أحد منهم بل يؤمنون بهم كلهم ولا يكونوا كمن قال الله فيهم (ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا)

وعن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل الله »

وعن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ أكثر ما يصلي الركعتين اللتين قبل الفجر بـ (آمنا بالله وما أنزل الينا) والآية الأخرى بـ (آمنا بالله واشهد بأننا مسلمون)

* * *

وقال بعض المفسرين .. الأسباط بنو يعقوب وهم اثنا عشر رجلا ولد كل رجل منهم أمة فسموا الأسباط

وقال البخاري : الأسباط قبائل بني إسرائيل ، وهذا يقتضي أن المراد بالأسباط ههنا شعوب بني إسرائيل وما أنزل الله من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم كما قال موسى لهم (اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا) وقال تعالى (وقطعناهم اثنتي عشر أسباطا)

قال القرطبي .. وسموا الأسباط من السبط وهو التتابع فهم جماعة

* * *

وعن ابن عباس قال : كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وإسحق ويعقوب وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام

قال سليمان بن حبيب : إنما أمرنا أن نؤمن بالتوراة والإنجيل ، ولا نعمل بما فيهما وفي الحديث الشريف عن معقل بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ « آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل وليسعكم القرآن »

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ

فإن آمن الكفار من أهل الكتاب وغيرهم بمثل ما آمنتم به أيها المؤمنون بجميع كتب الله ورسله بغير تفرقة بين أحد منهم (فقد اهتدوا) أصابوا الحق وأرشدوا اليه (وإن تولوا) عن هذا الحق إلى الباطل بعد قيـــام الحجة عليهم (فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله) ينصرك عليهم ويظفرك بهم (وهو السميع العليم)

قال زياد بن يونس حدثنا نافع بن أبى نعيم قال :

أرسل إلى بعض الخلفاء مصحف عثمان بن عفان ليصلحه . . قال زياد .. فقلت له إن الناس ليقولون إن مصحفه كان فى حجره حين قتل، فوقع الدم على (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) فقال نافع: بصرت عينى بالدم على هذه الآية وقد قدم

* * *

(وقوله صبغة الله) دين الله

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن نبى الله ﷺ قال « إن بنى إسرائيل قالوا يارسول الله هل يصبغ ربك ؟ فقال اتقوا الله . فناداه ربه ياموسى سألوك هل يصبغ ربك ؟ فقل نعم « أنا أصبغ الألوان الأحمر والأبيض والأسود والألوان كلها من صبغى وأنزل الله على نبيه ﷺ (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة)

* * *

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ . أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ

والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل ءأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن
كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون . تلك أمة قد خلت
لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون

ذلك إرشاد من الله تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين (قل أتحاجوننا فى الله) تناظروننا فى توحيده سبحانه والإخلاص له والانقياد واتباع أوامره وترك زواجره (وهو ربنا وربكم) المتصرف فينا وفيكم المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لاشريك له (ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم) فنحن برآء منكم ومما تعبدون وأنتم برآء منا كما قال فى الآية الأخرى (فإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم . أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون)

ثم أنكر تعالى عليهم فى دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم إما اليهودية وإما النصرانية فقال (قل أأنتم أعلم أم الله) وأخبر سبحانه أنهم لم يكونوا هودا ولا نصارى كما قال تعالى (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانياً ولكن كان حنيفا مسلماً وما كان من المشركين)

* * *

وقال الحسن البصرى فى قوله سبحانه (ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله) إنهم كانوا يقرءون فى كتاب الله الذى أتاهم إن الدين الإسلام وإن محمدا رسول الله وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا برآء من اليهودية والنصرانية فشهدوا بذلك وأقروا على أنفسهم لله فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك (وما الله بغافل عما تعملون) تهديد ووعيد شديد فإن علمه سبحانه محيط بعلمكم وسيجزيكم عليه

ثم قال تعالى (تلك أمة قد خلت) أى قد مضت (لها ما كسبت ولكم ما كسبتم) أى لهم أعمالهم ولكم أعمالكم (ولا تسئلون عما كانوا يعملون) وليس يغنى عنكم انتسابكم اليهم من غير متابعة منكم لهم ولا تغتروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا منقادين مثلهم لأوامر الله واتباع رسله الذين بعثوا مبشرين ومنذرين فإنه من كفر بنبى واحد فقد كفر بسائر الرسل ولا سيما بسيد الأنبياء وخاتم المرسلين ورسول

رب العالمين إلى جميع الإنس والجن من المكلفين صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين .

* * *

سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم

قيل المراد بالسفهاء مشركو العرب وقيل أحبار اليهود وقيل المنافقون والآية عامة فى هؤلاء كلهم والله أعلم .

عن أبى إسحق عن البراء قال كان رسول الله ﷺ يصلى نحو بيت المقدس ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله فأنزل الله (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام) فقال رجال من المسلمين وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس فأنزل الله (وما كان الله ليضيع إيمانكم) وقال السفهاء من الناس الذين تقدم وصفهم : ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟ فأنزل الله (سيقول السفهاء من الناس) الى آخر الآية

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس إن رسول الله ﷺ لما هاجر الى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً وكان عليه السلام يحب قبلة ابراهيم فكان يدعو الله وينظر إلى السماء فأنزل عز وجل (فولوا وجوهكم شطره) أى نحوه فارتاب من ذلك اليهود وقالوا : ماولاهم عن

قبلتهم التى كانوا عليهـــا ؟ فأنزل الله (قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم)

وقد جاء فى هذا الباب أحاديث كثيرة

وحاصل الأمر أنه قد كان رسول الله ﷺ أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس فكان بمـــكة يصلى بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما (أى بين الكعبة وبيت المقدس) فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس

وهذا رأى ابن عباس والجمهور ، ثم اختلفوا هل كان الأمر بذلك من القرآن أو بغيره؟ وفى تفسير للحسن البصرى أن التوجه إلى بيت المقدس كان باجتهاده عليه السلام

مسجد القبلتين

وذكر غير واحد من المفسرين أن تحويل القبلة نزل على رسول الله وقد صلى ركعتين من الظهر وذلك فى مسجد بنى سلمة فسمى مسجد القبلتين، وجاء فى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة

وفى هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به، وإن تقدم نزوله وإبلاغه لأنهم لم يؤمروا بإعادة الأوقات التى مضت قبل أن يعلموا نبأ تغيير القبلة

ولما وقع هذا حصل لبعض أهل النفاق والريب والكفرة زيغ عن الهدى وتخبيط وشك وقالوا (ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها) أى قالوا ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا وتارة يستقبلون كذا فأنزل الله جوابهم فى قوله (قل لله المشرق والمغرب) أى الحكم والتصرف والأمر كله لله (فأينما تولوا فثم وجه الله) و (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبـــل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله) أى الشأن كله فى امتثال أوامر الله فحيثما وجهنا توجهنا فنحن عبيده

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ فى أهل الكتاب « إنهم لا يحسدوننا على شىء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التى هدانا الله لها وضلوا عنها وعلى القبلة التى هدانا الله لها وضلوا عنها وعلى قولنا خلف الإمام آمين »

(وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) يقول تعالى إنما حولنا كم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم لأن الجميع معترفون لكم بالفضل والوسط هنا الخيار والأجود كما يقال قريش أواسط العرب نسبا ودارا أى خيرها وكان رسول الله ﷺ وسطا فى قومه ، أى أشرفهم نسباً ومن هذا. الصلاة الوسطى التى هى أفضل الصلوات وهى العصر كما ثبت فى الصحاح . ولما جعل الله هذه الأمة وسطا خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب كما قال تعالى (هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس)

وفى الحديث الشريف « يدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت ؟ فيقول نعم . فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم ؟ فيقولون ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد ، فيقال لنوح من يشهد لك، فيقول محمد وأمته، قال فذلك قوله (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) قال والوسط العدل فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم »

وفى حديث آخر « أنا وأمتى يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق ما من الناس أحد إلا ود أنه منا وما من نبى كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه عز وجل »

وعن جابر بن عبد الله قال : شهد رسول الله ﷺ جنازة فى بنى سلمة وكنت إلى جانب رسول الله فقال بعضهم والله يارسول الله لنعم المرء كان، لقد كان عفيفا مسلما وأثنوا عليه خيرا ، فقال رسول الله « أنت بما تقول » فقال الرجل . الله أعلم بالسرائر فأما الذى بدا لنا منه فذاك فقال النبى ﷺ «وجبت»

* * *

قال أبو الأسود : أتيت المدينة فوافقتها وقد وقع بها مرض، فهم يموتون موتا ذريعا ، فجلست إلى عمر بن الخطاب فمرت به جنازة فأثنى على صاحبها خيراً فقال وجبت ثم مر بأخرى فأثنى عليها شراً ، فقال عمر: وجبت ، فقال أبو الأسود ما وجبت يا أمير المؤمنين ؟ قال قلت كما قال رسول الله ﷺ « أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة » قال فقلنا وثلاثة .!؟ فقال « وثلاثة » قال فقلنا واثنان قال « واثنان » ثم لم نسأله عن الواحد .

وعن أبى زهير الثقفى عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « يوشك أن

تعلموا خياركم من شراركم » قالوا بم يارسول الله ؟ قال « بالثناء الحسن والثناء السيء » ، أنتم شهداء الله فى الأرض».

* * *

وقوله تعالى (وماجعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله) يقول تعالى إنما شرعنا لك يامحمد التوجه أولا إلى بيت المقدس ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجهت ممن ينقلب على عقبيه ، أى مرتدا عن إدينه وإن كانت لكبيرة ، أى هذه الفعلة وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة أى وإن كان هـــذا الأمر عظيما فى النفوس إلا على الذين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول وأن كل ماجاء به فهو الحق الذى لامرية فيه وأن الله يفعل مايشاء ، ويحكم مايريد فله أن يكلف عباده بما شاء وينسخ مايشاء ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة فى جميع ذلك بخلاف الذين فى قلوبهم مرض فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكا كما يحصل للذين آمنوا إيمان وتصديق ، كما قال الله تعالى (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم) وقال تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى) وقال تعالى (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا)

ولهذا كان من ثبت على تصديق الرسول ﷺ واتباعه وتوجه حيث أمره الله من غير شك ولا ريب من سادات الصحابة ، وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلوا إلى القبلتين

* * *

(وما كان الله ليضيع إيمانكم) أى صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك لن يضيع ثوابها عند الله ذلك أنه جاء فى الصحيح من حديث أبى إسحق السبيعى عن البراء قال : مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس فقال الناس ماحالهم فى ذلك ؟ فأنزل الله (وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم) وقد روى أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها فجعلت كلما وجدت صبيا من السبي أخذته فألصقته بصدرها وهى تبحث عن ولدها فلما وجدته ضمته إليها وألقمته ثديها

فقال ﷺ « أترون هذه طارحة ولدها فى النار وهى تقدر أن لاتطرحه ؟ » قالوا : لا يارسول الله . قال « فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها »

* * *

قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس كان أول مانسخ من القرآن القبلة

وقال أبو سعيد بن المعلّى : كنا نغدو إلى المسجد على عهد رسول الله فنصلى فيه فمررنا يوما ورسول الله ﷺ قاعد على المنبر فقلت قد حدث أمر فجلست فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها) حتى فرغ من الآية : فقلت لصاحبى تعال نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله فنكون أول من صلى فتوارينا فصلينا . ثم نزل النبى وصلى للناس الظهر يومئذ وكانت أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ إلى الكعبة

وفى الحديث « البيت قبلة لأهل المسجد والمسجد قبلة لأهل الحرم والحرم قبلة لأهل الأرض فى مشارقها ومغاربها من أمتى »

* * *

(مسئلة) وقد استدل المالكية من قوله تعالى (فول وجهك شطر المسجد الحرام) أن المصلى ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده كما ذهب إليه الشافعى وأحمد وأبو حنيفه . فلو نظر إلى موضع سجوده لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء وهو ينافى كمال القيام .. وقال بعضهم .. ينظر المصلى فى قيامه إلى صدره . وقال شريك القاضى ينظر فى حال قيامه إلى موضع سجوده كما قال الجمهور لأنه أبلغ فى الخضوع وآكد فى الخشوع وقد ورد به فى الحديث، وأما فى حال ركوعه فإلى موضع قدميه . وفى حال سجوده الى

موضع أنفه وفى حال قعوده إلى حجره

وقوله (وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم) هم اليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرافكم عن بيت المقدس يعلمون أن الله تعالى سيوجهك اليها بما فى كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة ولكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك حسداً وكفرا وعنادا ولهذا تهددهم الله تعالى بقوله (وما الله بغافل عما يعملون)

* * *

ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين

إن الرسول ﷺ لو أقام لهؤلاء كل دليل على صحة ماجاءهم به لما اتبعوه وتركوا أهواءهم كما قال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) ولهذا قال فى السياق (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك)

* * *

وقوله سبحانه (وما أنت بتابع قبلتهم) إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به، وأنه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم فهو أيضا مستمسك بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته وأنه لا يتبع أهواءهم فى جميع أحواله ولا فى كونه متوجها إلى بيت المقدس لكونها قبلة اليهود . وإنما ذلك عن أمر الله تعالى ثم حذر تعالى عن مخالفة الحق الذى يعلمه العالم إلى الهوى ، فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره .

ولهذا قال مخاطبا الرسول والمراد به الأمة (ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين)

* * *

الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون. الحق من ربك فلا تكونن من الممترين

إن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ماجاءهم به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده والعرب كانت تضرب المثل فى صحة الشيء بهذا

ويروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال نعم وأكثر . نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته

فالمراد أنهم يعرفون ذلك كما يعرف الإنسان ابنه إذا رآه من أبناء الناس جميعا ثم أخبر الله تعالى أنهم مع هذا التحقق والإتقان العلمى (ليكتمون الحق) أى ليكتمون الناس ما فى كتبهم من صفة النبى (وهم يعلمون) ثم ثبت تعالى نبيه والمؤمنين وأخبرهم بأن ماجاء به الرسول ﷺ هو الحق الذى لامرية فيه فقال (الحق من ربك فلا تكونن من الممترين)

* * *

ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أين ماتكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء قدير

لكل قبيلة قبلة يرضونها ووجهة الله حيث توجه المؤمنون . لليهودى قبلة هو موليها وللنصرانى قبلة هو موليها، وهداكم أنتم أيتها الأمة إلى القبلة التى هى القبلة، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا) وقال ههنا (أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء قدير) فهو سبحانه قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم

* * *

ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه

للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون . ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشونى ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون

إنه أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض وقد اختلف فى حكمة هذا التكرار ثلاث مرات فقيل تأكيد لأنه أول ناسخ وقع فى الإسلام على ما نص عليه ابن عباس وغيره . وقيل بل هو منزل على أحوال فالأمر الأول لمن هو مشاهد الكعبة . والثانى لمن هو فى مكة غائبا عنها ، والثالث لمن هو فى بقية البلدان

وهذا رأى فخر الدين الرازى، ورأى القرطبى قريب منه، وقيلت أقوال كثيرة فى حكمة التكرار وقد ذكرنا لك أهمها والله أعلم

وقوله (لئلا يكون للناس عليكم حجة) أى أهل الكتاب فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة وقد قال هؤلاء عن النبى ﷺ سيرجع محمد إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا، وكانوا يقولون إن هذا الرجل يزعم أنه على دين ابراهيم فإن كان توجهه من قبل إلى بيت المقدس تطبيقا لزعمه أنه على ملة ابراهيم فلم يرجع عن ذلك؟ والجواب أن الله تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس أولا لما له تعالى فى ذلك من الحكمة فأطاع ربه فى ذلك، ثم صرفه إلى قبلة ابراهيم وهى الكعبة فامتثل أمر الله فى ذلك أيضا فهو صلوات الله وسلامه عليه مطيع لله فى جميع أحواله لا يخرج عن أمر ربه طرفة عين وأمته تبع له (إلا الذين ظلموا منهم) يعنى مشركى قريش (فلا تخشوهم واخشونى ولأتم نعمتى عليكم) فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهها (ولعلكم تهتدون) إلى ما ضلت عنه الأمم مما هدينا كم اليه وخصصناكم به ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها .

* * *

كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم

الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون : فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون

تذكرة من الله تعالى لعباده المؤمنين بما أنعم عليهم من بعث الرسول محمد ﷺ اليهم يتلو عليهم آيات الله مبينات ويزكيهم أى يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويعلمهم الكتاب وهو القرآن والحكمة وهى السنة ويعلمهم مالم يكونوا يعلمون ، فكانوا فى جاهلية قبل بعثه انتقلوا منها ببركة رسالته إلى سجايا العلماء وحال الأولياء فصاروا أعمق الناس علما وأبرهم قلوبا وأقلهم تكلفا وأصدقهم قيلا . وقال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم) وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة فقال تعالى (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار) ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره : وقال (فاذكروني أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون)

* * *

روى أن موسى عليه السلام قال: يارب كيف أشكرك ؟ قال له ربه « تذكرنى ولا تنسانى ، فإذا ذكرتنى فقد شكرتنى ، وإذا نسيتنى فقد كفرتنى » وقال بعض السلف فى قوله تعالى (اتقوا الله حق تقاته) قال هو أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر

* * *

وعن ابن عباس فى قول الله تعالى (فاذكروني أذكركم) قال: ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه، وفى تفسير الحسن البصرى - اذكرونى فيما افترضت عليكم أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسى، وفى الحديث قال رسول الله ﷺ « قال الله عز وجل يا ابن آدم إن ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى وإن ذكرتنى فى ملأ ذكرتك فى ملأ من الملائكة أو قال فى ملأ خير منه — وإن دنوت منى شبرا دنوت منك ذراعا ، وإن دنوت منى ذراعا دنوت منك باعا ، وإن أتيتنى تمشى أتيتك هرولة »

وقوله (واشكروا لى ولا تكفرون) أمر الله تعالى بشكره ووعد على شكره بمزيد

الخير فقال (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد)

* * *

يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين .
ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون

لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر شرع في بيان الصبر والإرشاد والاستعانة بالصبر والصلاة فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها أو نقمة فيصبر عليها كما جاء في الحديث « عجبا للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له . إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له » وبين تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب الصبر والصلاة كما تقدم في قوله (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين)

وقد كان رسول الله إذا حزبه أمر صلى ، والصبر صبران ، فصبر على ترك المحارم والمآثم ، وصبر على فعل الطاعات والقربات ، والثاني أكثر ثواباً لأنه المقصود ، وأما الصبر الثالث وهو الصبر على المصائب والنوائب فذاك أيضاً واجب .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم الصبر في بابين : الصبر لله بما أحب وإن ثقل على النفس والأبدان ، والصبر لله عما كره وإن نازعت إليه الأهواء ، فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يسلم الله عليهم إن شاء الله .

* * *

وقال زين العابدين علي بن الحسين إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادي مناد أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب ؟ قال فيقوم عنق من الناس فتتلقاهم الملائكة فيقولون إلى أين يا بني آدم ؟ فيقولون إلى الجنة ، فيقولون قبل الحساب ؟ فيقولون نعم فيسألهم الملائكة ومن أنتم ؟ فيجيبون نحن الصابرون . قالوا وما صبركم ؟ قالوا صبرنا على طاعة الله وصبرنا عن معصية الله حتى توفانا الله . قالوا أنتم كما قلتم ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين) .. ويشهد لهذا قوله تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)

وقال سعيد بن جبير الصبر اعتراف من العبد لله بما أصاب منه واحتسابه عند الله

رجاء ثوابه وقد يجزع الرجل وهو متجلد لا يرى منه إلا الصبر

وقوله تعالى (ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء) إخبار منه سبحانه أن الشهداء فى برزخهم أحياء يرزقون كما جاء فى صحيح مسلم: أن أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال ماذا تبغون ؟ فقالوا ياربنا وأى شىء نبغى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟ ثم رد عليهم بمثل هـــذا فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا ، قالوا نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فى سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى — لما يرون من ثواب الشهادة — فيقول الرب جل جلاله — إنى كتبت أنهم اليها لا يرجعون .

ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين. الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون

أخبرنا تعالى أنه يبتلى عباده : أى يختبرهم ويمتحنهم كما قال تعالى (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) فتارة بالسراء وتارة بالضراء من خوف وجوع كما قال تعالى (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه . ولهذا قال لباس الجوع والخوف . وقال ههنا (بشىء من الخوف والجوع) أى بقليل من ذلك (ونقص من الأموال) أى ذهاب بعضها (والأنفس) كموت الأصحاب والأقارب والأحباب (والثمرات) فلا تغل المزارع والحدائق كعادتها . قال بعض السلف . فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة . وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده فمن صبر أثابه ومن قنط أحل به عقابه .

ولهذا قال الله تعالى (وبشر الصابرين)

حكى بعض المفسرين أن المراد من الخوف ههنا خوف الله ، وبالجوع صيام رمضان ، وبنقص الأموال الزكاة . والأنفس الأمراض . والثمرات الأولاد

وفى هذا التفسير نظر والله أعلم .

ثم بين تعالى من الصابرين الذين شكرهم فقال (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون) أى تسلوا بقولهم هذا عما أصابهم وعلموا أنهم ملك لله يتصرف فى عبيده كيف شاء . وعلموا أنه لايضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده وأنهم اليه راجعون فى الدار الآخرة . ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك فقال (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) أى ثناء من الله عليهم . (وأولئك هم المهتدون) قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نعم العدلان ونعم العلاوة (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) فهذان العدلان (وأولئك هم المهتدون) فهذه العلاوة وهى ماتوضع بين العدلين وهى زيادة فى الحمل فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا .

* * *

وقد ورد فى ثواب الاسترجاع وهو قول (إنا لله وإنا اليه راجعون) عند المصائب أحاديث كثيرة فمن ذلك ما روى عن أم سلمة قالت أتانى أبو سلمة يوما من عند رسول الله ﷺ فقال . لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولا سررت له . قال « لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول . اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها ، إلا فعل ذلك به » قالت أم سلمة فحفظت ذلك منه فلما توفى أبو سلمة استرجعت وقلت: اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها . ثم رجعت الى نفسى ، فقلت من أين لى خير من أبى سلمة ؟ فلما انقضت عدتى استأذن على رسول الله ﷺ وأنا أدبغ إهابا لى فغسلت يدى وأذنت له فوضعت له وسادة أدم حشوها ليف فقعد عليها فخطبنى إلى نفسى فلما فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله ما بى أن لا يكون فيك الرغبة ولكنى امرأة فى غيرة شديدة فأخاف أن ترى منى شيئاً يعذبنى الله به وأنا امرأة قد دخلت فى السن وأنا ذات عيال . فقال « أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله عز وجل عنك . وأما ما ذكرت من السن فقد أصابنى مثل الذى أصابك ، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالى » قالت . فقد سلمت لرسول الله .. فتزوجها رسول الله ﷺ فقالت أم سلمة

بعد : أبدلنى الله بأبى سلمة خيراً منه . . رسول الله ﷺ

« . »

وعن فاطمة ابنة الحسين عن أبيها الحسين بن على أن النبى قال « ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها .. وقال عباد قدم عهدها — فيحدث لذلك استرجاعا إلا جدد الله عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب »

وعن أبى سنان قال: دفنت ابناً لى فإنى لفى القبر إذ أخذ بيدى أبو طلحة الخولانى فأخرجنى وقال لى : ألا أبشرك قلت بلى . قال حدثنى الضحاك عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ « قال الله : لملك الموت قبضت ولد عبدى ؟ قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده ؟ قال نعم .: قال فما قال ؟ قال حمدك واسترجع . قال « ابنوا له بيتاً فى الجنة وسموه بيت الحمد . »

إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم

قالت عائشة رضى الله عنها إن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة التى كانوا يعبدونها فكان الناس يجدون حرجا أن يطوفوا بالصفا والمروة فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا يارسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة فى الجاهلية فأنزل الله عز وجل (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما)

قالت عائشة .. ثم سن رسول الله ﷺ الطواف بهما فليس لأحد أن يدع الطواف

فهذا إذن تبيان للذين كانوا يقولون إنما أمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة تحرجا

وفى حديث مسلم من حديث جابر الطويل أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه ثم خرج من باب الصفا وهو يقول (إن الصفا والمروة من شعائر الله) ثم قال « أبدأ بما بدأ الله به » وفى حديث آخر « كتب عليكم السعى فاسعوا »

وقد استدل بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعى بين الصفا والمروة ركن

فى الحج كما هو مذهب الشافعى ومن وافقه .. وقيل إنه واجب وليس بركن فإن تركه عمداً أو سهواً جبره بدم وبهذا يقول طائفة

وقيـــل بل مستحب وإليه ذهب أبو حنيفة والثورى وغيرهما والقول الأول أرجح لأنه عليه السلام طاف بينهما وقال « لتأخذوا عنى مناسككم » فكل مافعله فى حجته تلك واجب لا بد من فعله فى الحج إلا ماخرج بدليل والله أعلم

* * *

ومن حديث لابن عباس أن أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجر وترددها بين الصفا والمروة فى طلب الماء لولدها لما نفد ماؤهما وزادهما حين تركهما إبراهيم عليه السلام هنالك فلم تزل تتردد بين الصفا والمروة متذللة خائفة وجلة مضطربة فقيرة إلى الله عز وجل حتى كشف الله كربتها وآنس غربتها وفرج شدتها وأنبع لها زمزم فالساعى بين الصفا والمروة ينبغى له أن يستحضر فى نفسه إحساس الفقر والذل والحاجة إلى الله فى هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه وأن يلتجىء إلى الله عز وجل لتفريج ماهو به من النقائص والعيوب ، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم . وأن يثبته عليه إلى مماته وأن يحوله من حاله الذى هو عليه من الذنوب والمعـــاصى إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة كما فعل بهاجر عليها السلام

* * *

وقوله (فمن تطوع خيرا) قيل زاد فى طوافه بينهما ، على قدر الواجب بعد المرة السابعة ففعل ثامنة وتاسعة ونحو ذلك

وقيل يطوف بينهما فى حجة تطوع ، أو عمرة تطوع ، وقيل المراد تطوع خيراً فى سائر العبادات

وقوله (فإن الله شاكر عليم) أى يثيب على القليل بالكثير عليم بقدر الجزاء فلا يبخس أحدا ثوابه وألا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفهـــا ويؤت من لدنه أجراً عظيما

* * *

إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعـــد مابيناه

للنـــاس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم. ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون

إنه وعيد شـــديد لمن كتم ماجاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب من بعد مابينه الله تعالى لعباده فى كتبه التى أنزلها على رسله فكما أن العالم يستغفر له كل شىء حتى الحوت فى المـــاء والطير فى الهواء فهؤلاء بخلاف العلماء فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون وقد ورد فى حديث عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار »

وفى الصحيح عن أبى هريرة أنه قال: لولا آية فى كتـــاب الله ماحدثت أحداً شيئا (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى) وقيل فى تفسير (ويلعنهم اللاعنون) يعنى تلعنهم الملائكة والمؤمنون وقد جاء فى الحديث أن العـــالم يستغفر له كل شىء حتى الحيتان

* * *

ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه فقـــال (إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا) أى رجعوا عما كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم وبينوا للناس ماكانوا يكتمونه (فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم) وفى ذلك دلالة على أن الداعية الى كفر أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه

وأما من لم يتب واستمر به الحال إلى مـــاته فهؤلاء (عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها) أى فى اللعنة التى تصيبهم إلى يوم القيامة وتصاحبهم فى نار جهنم التى (لايخفف عنهم العـــذاب) فلا ينقص أبدا (ولا هم ينظرون) لايفتر عنهم العذاب ساعة واحدة بل هو دائم متواصل ونعوذ بالله من ذلك

* * *

(فصل) لاخلاف فى جواز لعن الكفار وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومن بعده الأئمة يلعنون الكفرة فى القنوت وغيره فأما الكافر المعين فقد ذهب جماعة إلى أنه لايلعن لأنا لاندرى بما يختم الله له، وقال آخرون بل يجوز لعن الكافر المعين ولكن أصحاب هذا الرأى استدلوا بحديث فيه ضعف

واستدل غيره بقوله عليه السلام فى قصة الذى كان يؤتى به سكران فيجلده فقال رجل لعنه الله ما أكثر مايؤتى به فقال رسول الله ﷺ « لاتلعنه فإنه يحب الله ورسوله » فدل على أن من لايحب الله ورسوله يلعن والله أعلم

* * *

وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم

إخبار من الله تعالى بأنه لاشريك له ولا عديل بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لا إله إلا هو وأنه الرحمن الرحيم . وقد تقدم تفسير هذين الاسمين وفى حديث شريف عن النبى ﷺ أنه قال « اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين » (وإلهكم إله واحد لاإله إلا هو الرحمن الرحيم) و (ألم الله لا إله إلا هو الحى القيوم)

ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية وبخلق السموات والأرض وما فيهما وما بين ذلك مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته فقال

* * *

إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون

(إن فى خلق السموات والأرض) فى ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها — وهذه الأرض فى كثافتها وانخفاضها وجبالها

وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع واختلاف الليل والنهار هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه لايتأخر عنه لحظة كما قال تعالى (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) وتارة يطول هذا ويقصر هذا وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتعاوضان كما قال تعالى (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) أى يزيد من هذا فى هذا ومن هذا فى هذا (والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس) من تسخير البحر لحمل السفن من بلد إلى بلد لمعايش النـــاس وتعارف أهل البلدان (وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها) كما قال تعالى (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون) وقوله سبحانه (وبث فيها من كل دابة) على اختلاف الأشكال والألوان والأحجام والمنافع وهو سبحانه وحده يعلم ذلك كله ويرزقه لايخفى عليه شىء من ذلك كما قال (وما من دابة فى الارض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين)

* * *

« وتصريف الرياح »

فتارة تأتى الرياح بالرحمة وتارة تأتى بالعذاب وتارة تأتى كالبشرى الجميلة بين يدى السحاب وتارة تسوقه وتدفعه وأخرى تصرفه وتفرقه كما أن هذه الرياح قد تأتى من الجنوب وتارة شرقية أو غربية وقد صنف الناس فى الرياح والمطر والأنواء كتباً مرعلوما وفنونا وبسط ذلك يطول إنها آية من آيات الله (والسحاب المسخر بين السماء والأرض) المعلق بينهما يسخره الله سبحانه إلى مايشاء من الأراضى والأماكن كل هذا وغيره « لآيات لقوم يعقلون » يجدون فى دلالات هذه الاشياء بينات على وحدانية الخالق كما قال « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار »

* * *

وعن ابن عباس قال : أتت قريش محمداً ﷺ فقالوا يامحمد إنا نريد أن تدعو ربك أن يجعل لنـــا الصفا ذهبا فنشترى به الخيل والسلاح فنؤمن بك ونقاتل معك قال « أوثقوا لى ان دعوت ربى فجعل لكم الصفا ذهبا لتؤمنن بى » فأوثقوا له فدعا ربه فأتاه جبريل فقال إن ربك قـــد أعطاهم الصفا ذهبا على أنهم إن لم يؤمنوا بك عذبهم

عذابا لم يعذبه أحداً من العالمين قال محمد ﷺ « رب لا، بل دعنى وقومى فلأدعهم يوما بيوم » فأنزل الله هذه الآية (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس)

* * *

ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب. إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب. وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار

يذكر تعالى حال المشركين به فى الدنيا وما لهم فى الدار الآخرة حيث جعلوا له أندادا أى أمثالا ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه هو، وهو الله لا إله إلا هو لا ضد له ولا ند له ولا شريك معه : وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال قلت يارسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » وقوله (والذين آمنوا أشد حبا لله) ولحبهم لله وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له لايشركون به شيئا بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه ويلجأون فى جميع أمورهم إليه .

ثم توعد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك فقال (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا) قال بعضهم تقدير الكلام لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعا أى أن الحكم له وحده لاشريك له وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه « وأن الله شديد العذاب » كما قال « فيومئذ لايعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد » فهم لو يعلمون مايعاينونه هنالك وما يحل بهم من الأمر الفظيع

المنكر الهائل على شركهم وكفرهم لانتهوا عما هم فيه من الضلال ثم أخبر عن عاقبة الأمر حين تتبدى لهم حقيقة ما كانوا يشركون بالله « إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا » تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم فى الدار الدنيا فتقول الملائكة « تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون » ويقولون « سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون » والجن أيضا تتبرأ منهم ويتنصلون من عبادتهم لهم كما قال تعالى « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » وقال تعالى « واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا » وقال الخليل لقومه « إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين » وقال تعالى « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » وقال تعالى « وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم » وقوله « ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب » أى عاينوا عذاب الله وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص ولم يجدوا عن النار معدلا ولا مصرفا .

* * *

« وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا » قولة الندم والحسرة حين يعضون على النواجذ لو أن لنا عودة الى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء فلا نلتفت إليهم بل نوحد الله وحده بالعبادة — وهم كاذبون فى هذا بل لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وأنهم لكاذبون كما أخبر الله تعالى عنهم، فقال « كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم »

يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون

لما بين تعالى أنه لا إله إلا هو وأنه المستقل بالخلق شرع يبين أنه الرزاق لجميع خلقه فذكر في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالا من الله طيبا أي مستطابا في نفسه غير ضار الأبدان ولا للعقول ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان وهي طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه .. وعن ابن عباس قال تليت هذه الآية عند النبي ﷺ (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا) فقام سعد بن أبي وقاص فقال يارسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة فقال « ياسعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه مايتقبل منه أربعين يوما وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به »

* * *

وقوله (إنه لكم عدو مبين) تنفير منه وتحذير منه كما قال (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) وقال تعالى (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) . . وقال قتادة والسدي في قوله (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) كل معصية لله فهي من خطوات الشيطان وكذلك النزغات والخطايا وإن لبست ثوب الحق تزييفا فقد نذر أحد الناس أن ينحر ابنه فأفتاه أحد الأئمة بذبح كبش وقال هذا من خطوات الشيطان ومن أمثال ذلك أيضا أن ابن مسعود أتى بضرع وملح فجعل يأكل فاعتزل رجل من القوم فقال ابن مسعود ناولوا صاحبكم فقال لا أريده ، فقال أصائم أنت ؟ قال لا ولكن حرمت على نفسي أن آكل ضرعا أبدا ، فقال ابن مسعود هذا من خطوات الشيطان فاطعم وكفر عن يمينك .

وعن ابن عباس قال ماكان من يمين أو نذر في غضب فهو من خطوات الشيطان وكفارته كفارة يمين .

(إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) أى إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم فيدخل فى هذا كل كافر وكل مبتدع أيضا

وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون . ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون

وإذا قيل لهؤلاء الكفرة من المشركين اتبعوا ما أنزل الله على رسوله واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل قالوا فى جواب ذلك بل نتبع ما ألفينا أى وجدنا عليه آباءنا أى من عبادة الأصنام والأنداد قال الله تعالى منكراً عليهم (أو لو كان آباؤهم) الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم (لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) ليس لهم فهم ولا هداية

(ومثل الذين كفروا) أى فيما هم فيه من الغى والضلال والجهل كالدواب السارحة التى لا تفقه ما يقال لها بل إذا نعق بها راعيها أى دعاها إلى ما يرشدها لا تفقه ما يقول ولا تفهمه بل إنما تسمع صوته فقط

وقوله (صم بكم عمى) أى صم عن سماع الحق بكم لا يتفوهون به عمى عن رؤية طريقه ومسلكه (فهم لا يعقلون) أى لا يعقلون شيئا ولا يفهمونه كما قال تعالى (والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم)

* * *

يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون . إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به

لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بالأكل من طيبات مارزقهم تعالى وأن يشكروه على ذلك إن كانوا عبيده

والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة كما جاء فى الحديث « أيها الناس، إن الله طيب لايقبل إلا طيبا وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم) وقال (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب له ؟» رواه مسلم فى صحيحه . ولما امتن تعالى عليهم برزقه وأرشدهم إلى الأكل من طيبه ذكر أنه لم يحرم عليهم من ذلك إلا الميتة وهى التى تموت حتف أنفها من غير تذكية وسواء كانت منخنقة أو موقوذة أو مترديه أو نطيحة أو عدا عليها السبع وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر لقوله تعالى (أحل لكم صيد البحر وطعامه)

وفى الحديث عن البحر « هو الطهور ماؤه الحل ميتة » وكذلك قوله ﷺ « أحل لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال »

وسيأتى تقرير ذلك إن شاء الله فى سورة المائدة

* * *

(مسئله) ولبن الميتة وبيضها المتصل بها نجس عند الشافعى وغيره لأنه جزء منها وقال مالك فى رواية هو طاهر إلا أنه ينجس بالمجاورة وكذلك أنفحة الميتة فيها الخلاف والمشهور عندهم أنها نجسة، وقد أوردوا على أنفسهم أكل الصحابة من جبن المجوس فقال القرطبى فى التفسير ههنا: يخالط اللبن منها يسير ويعفى عن قليل النجاسة إذا خالط الكثير من المائع .

وقد روى أن رسول الله ﷺ سئل عن السمن والجبن والفراء فقال « الحلال ما أحل الله فى كتابه والحرام ماحرم الله فى كتابه وما سكت عنه فهو مما عفا عنه » وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير سواء ذكى أم مات حتف أنفه . ويدخل شحمه فى حكم لحمه إما تغليبا أو أن اللحم يشمل ذلك أو بطريق القياس على رأى وكذلك حرم عليهم

ما أهل به لغير الله وهو ماذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام ونحو ذلك مما كانت الجاهلية ينحرون له .

* * *

وأورد القرطبي عن عائشة رضى الله عنها أنها سئلت عما يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون منه للمسلمين فقالت ماذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه وكلوا من أشجارهم . ثم أباح تعالى تناول ذلك عندالضرورة والاحتياج إليها عند فقد غيرها من الأطعمة فقال (فمن اضطر غير باغ ولا عاد) أى فى غير بغى ولا عدوان وهو مجاوزة الحد (فلا إثم عليه) فى أكل ذلك (إن الله غفور رحيم)

وقال مجاهد فمن اضطر غير باغ ولا عاد قاطعا للسبيل أو مفارقا الأئمة أو خارجا فى معصية الله فله الرخصة ومن خرج باغياً أو عاديا أو فى معصية الله فلا رخصة له وإن اضطر اليه .

* * *

وإذا وجد المضطر ميتة ووجد طعاما لايخصه وإنما يخص غيره فهل يحل له أكل الميتة باعتباره مضطرا لايجد أم يمد يده إلى طعام غيره . . قيل لايحل له أكل الميتة بل يأكل طعام الغير — بغير خلاف —

قال جعفر بن أبي وحشية سمعت عباد بن شرحبيل العنزى قال أصابتنا عاما مخمصة فأتيت المدينة فأتيت حائطا فأخذت سنبلا ففركته وأكلته وجعلت منه فى كسائى فجاء صاحب الحائط فضربنى وأخذ ثوبى فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال للرجل « ما أطعمته إذ كان جائعاً ولا ساغياً ولا علمته إذ كان جاهلا » فأمره فرد إليه ثوبه وأمر له بوسق من طعام أو نصف وسق .

إسناده صحيح قوى جيد وله شواهد كثيرة . من ذلك

* * *

سئل رسول الله ﷺ عن الثمر المعلق فقال « من أصاب منه من ذى حاجة بفيه غير متخذ خبنة فلا شىء عليه »

(فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم) فيما أكل من اضطرار وبلغنا والله أعلم أنه لايزاد على ثلاث لقم : وقال سعيد بن جبير : غفور لما أكل من الحرام ، رحيم إذ

أحل له الحرام فى الاضطرار ،

وقال وكيع أخبرنا الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق قال من اضطر فلم يأكل ولم يشرب ثم مات دخل النار وهذا يقتضى أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لارخصة كالإفطار للمريض ونحو ذلك .

* * *

إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك مايأكلون فى بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار . ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد

(إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب) هم اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ فى كتبهم التى بأيديهم مما تشهد له بالرسالة والنبوة فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم آباءهم فخشوا إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم فكتموا ذلك إبقاء على ما كان يحصل لهم من ذلك وهو نزر يسير فباعوا أنفسهم بذلك واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن الله بذلك النزر اليسير فخابوا وخسروا فى الدنيا والآخرة أما فى الدنيا فان الله أظهر لعباده صدق رسوله بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه وصاروا عونا له على قتالهم وباءوا بغضب على غضب وذمهم الله فى كتابه فى غير موضع فمن ذلك هذه الآية الكريمة (إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا) وهو عرض الحياة الدنيا (أولئك مايأكلون فى بطونهم إلا النار) أى إنما يأكلون مايأكلونه فى مقابلة كتمان الحق نارا تأجج فى بطونهم يوم القيامة كما قال تعالى (إن الذين يأكلون

أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا)

وفى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن الذى يشرب فى آنية الذهب والفضة إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم »

* * *

وقوله تعالى (ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) ذلك لأنه غضبان عليهم لأنهم كتموا وقد علموا فاستحقوا الغضب فلا ينظر إليهم ولا يزكيهم أى لا يثنى عليهم ويمدحهم بل يعذبهم عذابا أليما

وعن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، شيخ زان وملك كذاب وعائل مستكبر »

ثم قال تعالى مخبرا عنهم (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) أى اعتاضوا عن الهدى وهو نشر ما فى كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الأنبياء واتباعه وتصديقه استبدلوا عن ذلك كله واعتاضوا عنه الضلالة وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته فى كتبهم (والعذاب بالمغفرة) اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة (فما أصبرهم على النار) فهم فى عذاب شديد هائل يتعجب من رآهم فيها من صبرهم على ما هم فيه من العذاب والنكال وقيل فى تفسير آخر لمعنى قوله (فما أصبرهم على النار) أى فما أدومهم لعمل المعاصى التى تفضى بهم إلى النار

وقوله تعالى (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق) ولكنهم اتخذوا آيات الله هزوا فكتابهم يأمرهم بإظهار العلم ونشره فخالفوه وكذبوه وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وهم يكذبونه ويخالفونه ويجحدون ويكتمون صفته فلهذا استحقوا العذاب والنكال (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد)

* * *

ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على

حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون

اشتملت هذه الآية الكريمة على معان عظيمة وقواعد عميمة وعقيدة مستقيمة كما جاء عن أبى ذر أنه سأل رسول الله ﷺ ما الإيمان ؟ فتلا عليه (ليس البر أن تولوا وجوهكم) إلى آخر الآية ثم سأله أيضا فتلاها عليه ثم سأله فقال « إذا عملت حسنة أحبها قلبك وإذا عملت سيئة أبغضها قلبك »

وأما الكلام على تفسير هذه الآية فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولا بالتوجه إلى بيت المقدس ثم حولهم إلى الكعبة شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين فأنزل الله تعالى بيان حكمته فى ذلك وهو أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل وامتثال أوامره والتوجه حيثما وجه واتباع ماشرع فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل وليس فى لزوم التوجه إلى جهة الشرق أو الغرب بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه ولهذا قال (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر) الآية كما قال فى الأضاحى والهدايا (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم)

* * *

وقال ابن عباس فى هذه الآية . ليس البر أن تصلوا ولا تعملوا فهذا حين تحول من مكة إلى المدينة ونزلت الفرائض والحدود فأمر الله بالفرائض والعمل بها فالبر هو ماثبت فى القلوب من طاعة الله عز وجل

ويرى الثورى رحمه الله أن هذه هى أنواع البر كلها وأن من اتصف بها فقد دخل فى عرى الإسلام كلها وأخذ بمجامع الخير كله وهو الإيمان بالله وأنه لا إله إلا هو وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله (والكتاب) وهو اسم جنس

يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن المهيمن على مافيه من الكتب الذى انتهى إليه كل خير واشتمل على كل سعادة فى الدنيا والآخرة ونسخ به كل ماسواه من الكتب قبله وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم

* * *

(وآتى المال على حبه) أخرجه وهو محب له راغب فيه كما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة مرفوعا « أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر » وقال تعالى (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا) وقال تعالى (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وقوله (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) نمط آخر أرفع من هذا وهو أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه وهؤلاء أعطوا وأطعموا مما هم محبون له وقوله (ذوى القربى) وهم قرابات الرجل وهم أولى من أعطى الصدقة كما ثبت فى الحديث « الصدقة على المساكين صدقة وعلى ذوى الرحم اثنتان ، صدقة وصلة ، فهم أولى الناس بك وببرك وإعطائك ، وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم فى غير موضع من كتابه العزيز .

(واليتامى) هم الذين لا كاسب لهم وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب .

(والمساكين) وهم الذين لايجدون مايكفيهم فى قوتهم وكسوتهم وسكناهم فيعطون ماتسد به حاجتهم وخلتهم وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « ليس المسكين بهذا الطواف الذى ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان ولكن المسكين الذى لايجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه »

(وابن السبيل) هو المسافر المجتاز الذى قد فرغت نفقته فيعطى مايوصله إلى بلده وكذا الذى يريد سفراً فى طاعة فيعطى مايكفيه فى ذهابه وإيابه ويدخل فى ذلك الضيف كما روى عن ابن عباس : ابن السبيل هو الضيف الذى ينزل بالمسلمين وكذا قال غيره

* * *

(والسائلين) وهم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات وفى الحديث « للسائل حق وإن جاء على فرس »

(وفى الرقاب) وهم المكاتبون الذين لايجدون مايؤدونه فى كتابتهم وسيأتى الكلام

على كثير من هذه الأصناف فى آية الصدقات من سورة براءة إن شاء الله

قالت فاطمة بنت قيس : إنها سألت رسول الله ﷺ أفى المال حق سوى الزكاة ؟ قالت فتلا على (وآتى المال على حبه) وقوله تعالى (وأقام الصلاة) أى أتم أفعال الصلاة فى أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى وقوله (وآتى الزكاة) يحتمل أن يكون المراد به زكاة النفس وتخليصها من الأخلاق الدنيئة الرذيلة كقوله (قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها) وقول موسى لفرعون (هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى)

وقوله تعالى (وويل للمشركين الذين لايؤتون الزكاة) ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال ويكون ماذكر آنفا من إعطاء الجهات المذكورة من قبل إنما هو التطوع والبر والصلة ولهذا تقدم فى الحديث عن فاطمة بنت قيس أن المال حق سوى الزكاة والله أعلم

* * *

وقوله تعالى (والموفون بعهدهم إذا عاهدوا) كقوله (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق) وعكس هذه الصفة النفاق كما صح فى الحديث « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان » وفى الحديث الآخر « وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر » وقوله (والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس) أى فى حال الفقر وهو البأساء . وفى حال المرض والأسقام وهو الضراء (وحين البأس) أى فى حال القتال والتقاء الأعداء وإنما نصب (الصابرين) على المدح والحث على الصبر فى هذه الأحوال لشدته وصعوبته والله أعلم وهو المستعان وعليه التكلان ،

* * *

(أولئك الذين صدقوا) هم هؤلاء الذين اتصفوا بالصفات السالفة صدقوا فى إيمانهم لأنهم حققوا الإيمان القلبى بالأقوال والأفعال فهؤلاء هم الصادقون (وأولئك هم المتقون) لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات .

* * *

يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد

بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم . ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون

يقول تعالى كتب عليكم العدل في القصاص أيها المؤمنون حركم بحركم وعبدكم بعبدكم وأنثاكم بأنثاكم ولا تتجاوزوا وتعتدوا كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم ، وسبب ذلك قريظة والنضير . كانت بنو النضير قد عزت قريظة في الجاهلية وقهروهم فكان إذا قتل النضري القرظي لايقتل به بل يفادى بمائة وسق من التمر وإذا قتل القرظي النضري قتل وإن فادوه فادوه بمائتي وسق من التمر ضعف دية القرظي فأمر الله بالعدل في القصاص ولا يتبع سبيل المفسدين المحرفين المخالفين لأحكام الله فيهم كفراً وبغياً فقال تعالى (كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى)

☆ ☆ ☆

عن سعيد بن جبير في صدد هذه الآية أن حيين من العرب اقتتلوا في الجاهلية قبل الإسلام بقليل فكان بينهم قتل وجراحات حتى قتلوا العبيد والنساء فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر في العدة والأموال فحلفوا أن لايرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحر منهم والمرأة منا الرجل منهم فنزل فيهم (الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى) منها منسوخة نسختها النفس بالنفس . . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (والأنثى بالأنثى) أنهم كانوا لايقتلون الرجل بالمرأة ولكن يقتلون الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة فأنزل الله النفس بالنفس وجعل العبيد مستوين فيما بينهم من العمد في النفس وفيما دون النفس رجالهم ونساؤهم وكذلك روى عن أبي مالك أنها منسوخة بقوله النفس بالنفس

☆ ☆ ☆

(مسئلة) ذهب أبو حنيفة إلى أن الحر يقتل بالعبد لعموم آية المائدة وإلى ذلك ذهب الثوري وآخرون للحديث عن سمرة « من قتل عبده قتلناه ومن جدع عبده

جدعناه ومن خصاه خصيناه »

وخالفهم الجمهور وقالوا لايقتل الحر بالعبد لأن العبد سلعة لو قتل خطأ لم يجب فيه دية وإنما تجب قيمته

وذهب الجمهور إلى أن المسلم لايقتل بالكافر لما ثبت فى البخارى عن على قال: قال رسول الله ﷺ « لايقتل مسلم بكافر » ولا يصح حديث ولا تأويل يخالف هذا وأما أبو حنيفة فذهب إلى أنه يقتل به لعموم آية المائدة

(مسئلة)قال الحسن وعطاء لايقتل الرجل بالمرأة لهذه الآية وخالفهم الجمهور لآية المائدة ولقوله عليه السلام « المسلمون تتكافأ دماؤهم »

(مسئلة) ذهب الأئمة الأربعة والجمهور أن الجماعة يقتلون بالواحد قال عمر فى غلام قتله سبعة فقتلهم وقال . . لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم . . ولا يعرف له فى زمانه مخالف من الصحابة وذلك كالإجماع

وحكى عن الإمام احمد رواية أن الجماعة لايقتلون بالواحد ولا يقتل بالنفس إلا نفس واحدة : وقال ابن المنذر وهذا أصح ولا حجة لمن أباح قتل الجماعة .

ونظر للخلاف فاذا اختلف الصحابة فسبيله النظر .

* * *

وقوله (فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان) فالعفو أن يقبل الدية فى العمد فعلى الطالب اتباع بالمعروف إذا أخـــذ الدية (وأداء اليه بإحسان) يعنى من القاتل من غير ضرر ولا مدافعة وأداء المطلوب بإحسان

وذهب بعض الأئمة إلى أنه ليس لولى الدم أن يعفو على الدية إلا برضا القاتل وذهب آخرون إلى أن له أن يعفو عليها وإن لم يرض

* * *

وذهب طائفة من السلف إلى أنه ليس للنساء عفو وخالفهم آخرون (ذلك تخفيف من ربكم ورحمة) فهو سبحانه شرع أخذ الدية فى العمد تخفيفا من الله عليكم ورحمة

بكم مما كان محتوما على الأمم قبلكم من القتل أو العفو .. وفى رواية عن ابن عباس أنه قال كتب على بنى إسرائيل القصاص فى القتلى ولم يكن فيهم العفو فقال الله لهذه الأمة (كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شىء) فالعفو أن يقبل الدية فذلك (تخفيف من ربكم) ولم تحل الدية لأحد من قبل (فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم) فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها فله عذاب من الله أليم شديد وفى الحديث الشريف « من أصيب بقتل أو خبل فانه يختار إحدى ثلاث إما أن يقتص وإما أن يعفو وإما أن يأخذ الدية فان أراد الرابعة فخذوا على يديه ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالدا فيها » وقال ﷺ « لا أعافى رجلا قتل بعد أخذ الدية » يعنى لا أقبل منه الدية بل أقتله .

(ولكم فى القصاص حياة) ففى قتل القاتل حكمة عظيمة وهى بقاء المهج وصونها لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه فكان فى ذلك حياة للنفوس وفى الكتب المتقدمة القتل أنفى للقتل فجاءت هذه العبارة فى القرآن أفصح وأبلغ وأوجز (ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون) يا أولى العقول والأفهام والنهى لعلكم تنزجرون وتتركون محارم الله ومآثمه .

والتقوى اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات

* * *

كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين . فمن بدله بعد ماسمعه فانما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم . فمن خاف من موص جنفا أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم

اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين وقد كان ذلك واجباً على أصح القولين قبل نزول آية المواريث فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه

وصارت المواريث المقدرة فريضة من الله يأخذها أهلوها حتما من غير وصية ولا تحمل منة الموصى ولهـــذا جاء فى الحديث « إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث » وعن محمد بن سيرين قال : جلس ابن عباس يقرأ سورة البقرة حتى أتى هذه الآية (إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين) فقال نسخت هذه الآية . وقال ابن عباس أيضا فى صدد تفسيرها بأنه كان لا يرث مع الوالدين غـــيرهما إلا وصية للأقربين فأنزل الله آية الميراث فبين ميراث الوالدين وأقر وصـــية الأقربين فى ثلث مال الميت .

* * *

وبينما نرى ابن عباس أن هذه الآية (الوصية للوالدين والأقربين) نسختها هـذه الآية (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا) وكذلك يقول معه بعض المفسرين، نجد البعض الآخر يقول إنها غير منسوخة وإنما مفسرة بآية المواريث ومعناه كتب عليكم ما أوصى الله به من توريث الوالدين والأقربين من قوله (يوصيكم الله فى أولادكم) وهذا قول أكثر المفسرين والمعتمدين من الفقهاء . ومنهم من قال إنها منسوخة فيمن يرث ثابتة فيمن لا يرث .

* * *

والخلاصة أن آية الميراث حكم مستقل ووجوب من عنـــد الله لأهل الفروض والعصبات ، بقى الأقارب الذين لا ميراث لهم يستحب أن يوصى لهم من الثلث استئناسا بآية الوصية وشمـــولها ولما ثبت فى الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « ما حق امرىء مسلم له شىء يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده »

قال ابن عمر مامرت على ليلة منذ سمعت رســـول الله ﷺ يقول ذلك إلا وعندى وصيتى ،

والآيات والأحاديث بالأمر ببر الأقارب والإحسان إليهم كثيرة جـــدا وفى الحديث الشريف يقول الله تعالى « يا ابن آدم ثلثان لم يكن لك واحدة منهما ، جعلت لك نصيبا فى مالك حين أخذت بكظمك لأطهرك به وأزكيك وصلاة عبادى عليك بعد انقضاء أجلك »

* * *

فالوصية حق على كل مسلم أن يوصى إذا حضره الموت بالمعروف غير المنكر والمراد بالمعروف أن يوصى لأقربيه وصية لا تجحف بورثته من غير إسراف ولا تقتير كما ثبت فى الصحيحين أن سعدا قال يارسول الله إن لى مالا ولا يرثنى إلا ابنة لى أفأوصى بثلثى مالى ؟ قال « لا » قال فبالشطر ؟ قال « لا » قال فالثلث ؟ قال « الثلث والثلث كثير . إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس »

* * *

وعن حنظلة بن حذيم بن حنيفة أن جده حنيفة أوصى ليتيم فى حجره بمائة من الإبل فشق ذلك على بنيه فارتفعوا إلى رسول الله ﷺ فقال حنيفة إنى أوصيت ليتيم بمائة من الإبل كنا نسميها المطية فقال النبى ﷺ « لا لا لا » الصدقة خمس وإلا فعشرو إلا فخمس عشرة » إلى أن قال « فإن كثرت فأربعون »

* * *

(فمن بدله بعد ماسمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم) يقول تعالى فمن بدل الوصية وحرفها فغير حكمها وزاد فيها أو نقص ويدخل فى ذلك الكتمان لها بطريق الأولى (فإنما إثمه على الذين يبدلونه) وقد وقع أجر الميت على الله وتعلق الإثم بالذين بدلوا ذلك (إن الله سميع عليم) قد اطلع على ما أوصى به الميت وهو عليم بذلك وبما بدله الموصى إليهم

(فمن خاف من موص جنفا أو إثما)

قال ابن عباس وغيره وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها بأن زادوا وارثا بواسطة أو وسيلة كما إذا أوصى ببيعة الشىء الفلانى محاباة أو أوصى لابن بنته ليزيدها أو نحو ذلك من الوسائل إما مخطئا غير عامد بل بطبعه وقوة شفقته من غير تبصر أو متعمداً آثما فى ذلك فللوصى والحالة هذه أن يصلح القضية ويعدل فى الوصية على الوجه الشرعى ويعدل عن الذى أوصى به الميت إلى ماهو أقرب الأشياء إليه وأشبه الأمور به جمعا بين مقصود الموصى والطريق الشرعى ، وهذا الإصلاح والتوفيق ليس من التبديل فى شىء .

ومن أعظم ماروى فى هذا الباب ماروى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة فاذا أوصى حاف فى وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار . وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل فى وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة »

تم الجـــزء الثانى

ويليه الجزء الثالث

إن شاء الله وأوله

(ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب
على الذين من قبلكم لعلكم تتقون. . الخ)